الخَلقُ الجَدِيدْ

أَحمَد الحقَيلْ

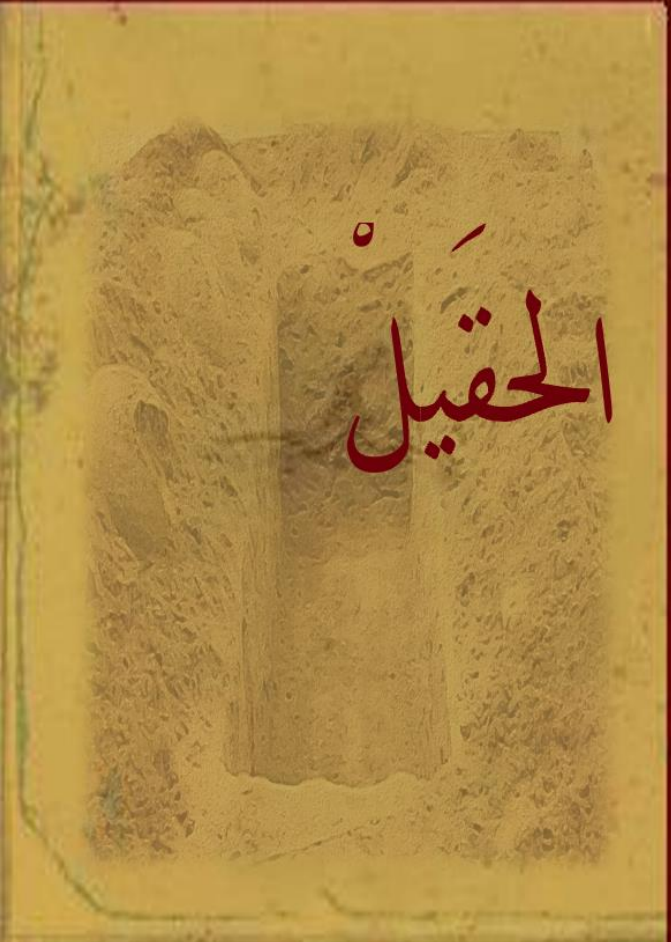

وفاء

الخلق الجديد

أحمد الحقيل

تصميم الغلاف: وفاء الحقيل

٢٠٢٠م – ١٤٤١هـ

البعث

١

كل شاخصٍ قد ابتلع سواده، ولا أثر للظل في الشمس المعمية. ويمكن لمبصرٍ أن يرى في مدى السطوع المزغلل كيف أن الضوء قد يكون أكثر إبهاما من الظلمة.

هنالك رجلان بين عدة قبور مبقورة بفتحة مكورة في وسطها. يلبسان بدلة شرطة تعود إلى السبعينات الميلادية، ويقفان دون حراك، وكأنهما وسط لوحة. أحدهما في آخر الأربعينات، طويل، وجهه جامد بلمحة خمول، ولحية عوارض خفيفة وغير محددة يخالطها شيب، وعلى كتفه أوسام الرقيب. الثاني شاب نحيل، يقف بتورط، وما يشبه الملل، وقد وضع يديه في جيبيه، وعلى كتفه أوسام جندي.

"أبو عبد الله؟" يسأل الشاب.

الرقيب يتطلع في القبور بشرود وخمول، ويرد "هاه؟"

"تقول القيامة يعني؟"

التفت الرقيب نحو مساعده، حدق إليه وسط الشمس. قال بهدوء: "شايف الشمس في الغرب؟"

يتطلع الشاب باستغراب بعد أن رفع نظرته الخاطفة للسماء بعينيه نصف المغمضتين "لا!"

"أنت الحين في السما؟"

"لا .."

"أجل وشلون تصير القيامة؟"

صوت الرقيب هادئ، رخيم. حركاته بطيئة ورتيبة. عاد ليحدق إلى القبور، تحت الشمس المعمية.

أخرج الجندي يديه في حركة اعتراض خاملة وقال: "أنا عارف ان القيامة ما قامت الحين!"

"أجل ليش تسأل؟"

"أنا أقصد هل يعني القيامة قربت".

فأصر الرقيب: "المرة الثانية قل كذا وخلك واضح. أنت شرطي منت شاعر".

فأعاد الجندي يديه إلى جيبيه، وأطرق بخمول.

ريح خفيفة تهب فتثير أتربة المقبرة المقفرة من أي شيء يمايز اللون في دكنة التراب والحصى، وفي الصمت المطبق يتردد حفيف أشجار بعيدة، مثل الوشوشة.

مر أمامهما كلب شارد، يسير متنقلا بين القبور، يتشمم الفارغة منها. يتأملانه سويا حتى اختفى.

سار الجندي عدة خطوات حتى وقف بجانب رئيسه، كتّف ساعديه على صدره، وتطلع بطرف عينيه إلى الرقيب، الذي بدا جامدا، عيناه مغلقتان تقريبا، يداه على وركيه، يقف صنما.

قال الجندي: "وش قاعدين نسوي؟"

"ننتظر".

"أبلّغ نافع؟"

فرد وهو يراقب شخصا يقترب ويشير إليه برأسه "هو اللي ننتظره".

نافع، أمير القرية، رجل بدين، في آخر الأربعينات من عمره أيضا. أقبل ببطء يتهادى بين القبور، وبرفقته أبناؤه الثلاثة الصغار الذين تريثوا بعيدا عن المشهد.

وقف بجانب الرقيب محدقا، ثم قال: "أعوذ بالله".

وحينما لم يعلق أحد، أضاف: "أكيد يسرقون الجثث مثل ما قلت، والا يا حمدان؟"

اتجه الرقيب حمدان بخطوات متئدة نحو أحد القبور، حرك التراب حول الفتحة بقدمه، ثم قال: "احتمال. لكن مثل ما صار في المرة الفايتة، وكأنهم مسحوبين سحب"، أطرق ثم أضاف بفتور لا يناسب دراماتيكية ما يلمّح إليه: "أو انهم طلعوا من داخل".

سأل نافع: "نعم؟!"

"طلعوا من داخل".

"داخل القبر؟!"

ولكن حمدان لم يرد، فهمس نافع وهو يعيد بصره إلى الثقب المكور بحجم إنسان واقف: "وجع!".

في جلده لمعة عرق تضرب فيها الشمس فيبدو وجهه البدين ومضيا. أكمل: "وشلون صار هالشي للمرة الثانية؟ وين كنتوا فيه؟" ثم التفت إلى الجندي: "وين كنت يا سالم؟".

تطلع حمدان إلى مساعده سالم بجمود، فهز الشاب كتفيه وقال "طَرَت لي شغلة. ما ظنيت بيصير شي".

قال نافع: "وش الشغلة اللي طرت لك وأنت جاي تراقب قبور"

"شغلة".

"وش؟"

أطرق لحظة، ثم قال: "رحت أطيّر الشراب".

رفع نافع يده اليسرى باستغراب: "عندك ورى الجدار".

"ما بي أزغل على جدار المقبرة. قبر أبوي وأخوي هنا، وجدّاني كلهم!".

الرقيب يراقب الحوار بجمود. رد نافع: "أنحن قايلين لك زغل عليهم؟! نقولك عند الجدار".

فرد سالم بجدل يبدو معادا: "أولا أرفض اني أطير الشراب عند مقبرة، هذا لا يليق. ثانيا لازم تشوف الموضوع من كافة الزوايا".

"أي زوايا؟"

"أنحن ما ندري وش اللي صاير، تخيل صار اللي صار وأنا منزل سروالي وقاعد أطير الشراب عند سور المقبرة، وش موقفي وقتها؟ وشلون أتصرف؟"، أطرق لحظة وكأنه يريد أن يترك مساحة للسؤال أن يفرض حيرته على الموقف، ثم أكمل: "تخيل لو اني انضربت وطحت؟".

ولكن نافع حك جبينه وقرر أن يسحب على النقاش معه. التفت إلى حمدان: "قبر واحد لرجّال محد يدري من هو نقدر نقول صدفة، بس عشرة قبور؟ وش بنقول لأهلهم؟ من هم اصلا؟".

فقال حمدان بإصرار هادئ: "لو كان عندنا رجال أكثر ما صار هالشي".

فرد الأمير "أنحن كلنا على بعضنا ٦٠ بيت، غيرك ما عنده مركز شرطة أصلا. تبي من يتطوع معك الناس ما تقصر".

ولكن الرقيب حسم الأمر: "ما نبي نتورط بأحد، ما ندري وش اللي صاير أصلا".

وهز سالم رأسه متفقا مع الجملة التي اقتبسها الرقيب منه.

الثلاثة يقفون بصمت. السراب يغلي في المدى المشمس، وما زال بالإمكان سماع أصوات الريح تتخلل الأشجار.

التفت نافع مرة أخرى إلى القبور، وهمس "من داخل!". أطرق لحظة وأضاف: "سو اللي تبي يا أبو عبدالله. الأمر عندك، لكنه عليك".

ثم استدار ومضى متهاديا وقد رفع ثوبه شبرا، يتبعه أبناؤه الثلاثة.

ظلا يراقبانه بصمت حتى خرج، وقال حمدان وهو يتحرك ببطء: "مشينا".

خرجا من المقبرة. يعلو صوت الريح في الأغصان وهما يقتربان من الطريق الزراعي الضيق، الذي تظلله أشجار النخيل المستقرة على حافتيه، وتظهر وهما يدخلانه شامخة وفارعة الطول، تصنع ستارة ظلية فوق ترابه المعبد، فكأنهما يلجان كهفا من الشجر والفيء داخل رقعة الشمس والقفر.

يمشيان داخل كهف الخضرة والظل حتى يصلان إلى السيارة. فورد موديل ٦٦.

ركبا وسارا في الطريق الزراعي. حمدان يمسك الدركسون بيده اليمنى ويتكئ باليسرى على حافة الباب، مطلقا راحة يده في الهواء. يتطلع أمامه بشرود ثقيل، ويكاد يرى الصور تتشكل في مخيلته. يسيطر على الصوت هدير المكينة وعثورة الريح من النافذة، ولكنه يسمع صوت سالم في الخلفية بعيدا، يترسخ صوته أكثر حتى أخرجه من شروده وهو يسأل "تبينا نبلغ مركز المدينة؟"

يترقب الإجابة، ولكن حمدان يرد: "لا ما يحتاج".

ظل سالم ملتفتا نحو رئيسه وهما على طرفي نقيض في مرتبة الفورد المخملية الضخمة، يفصل بينهما مركى منزلي، ثم أصر قائلا بهدوء: "عارف انك ما تبيهم.." وصمت ينتظر.

يبتسم حمدان ابتسامة صغيرة. فيكمل الشاب بتشجع أكثر: "لكن نقدر نروح لهم إذا ما قدر سرور يصلح جهاز البرقية".

يلتفت الرقيب نصف التفاتة إلى سالم، العرق يلمع في وجهيهما، ثم يعود ليحدق إلى الأمام، يقول دون أن يلتفت "فتح مخك معي: تبي تروح ١٥٠ كيلو، في طريق صحراوي كله رمل وبعارين، عشان تقولهم وش؟ عندنا سراقين قبور ما نقدر نمسكهم؟ والا تبي تقولهم الناس صارت تطلع من قبورها؟"

ثم يلتفت نحوه بابتسامة مستهزئة: "بيقولون انك مهبول ويحبسونك مع المهبل".

لا يرد سالم، ويلتفت متطلعا أمامه في الزجاجة الضخمة التي تشبه شاشة سينمائية، حيث ينبسط الطريق الزراعي طويلا، وتبدو الأشجار الفارعة مربوطة بالسماء، يتخللها ضوء الشمس على شكل عواميد مثل عصيّ الخيزران.

ويحل صمت يملؤه هدير المكينة وحفيف الريح.

العرق يلمع في وجه حمدان، وهو يتطلع أمامه. تتهدل ملامحه، يبدو وكأنه يعود إلى شروده الجامد الرتيب ببطء. يسمع صوت شايب يأتي من خارج كادر صورته: "عندك ثلاث بنادق، ومسدسين، واللي تبي من المتطوعين من أهل الديرة". الشايب يقف في غرفة حجرية تنتشر فيها أشعة الصباح الباكر. حمدان يقف أمامه، أصغر سنا، بشارب وركزة لحية ثقيلة السواد، يلبس ثوبا مدنيا، يتطلع بتفحص وجمود في طاولة عليها ثلاثة بنادق قديمة ومسدسان وست سكاكين كبيرة.

قال وهو يتطلع إلى الشيخ "وبس؟".

يتحرك الشيخ ليجلس على كرسي وراء مكتب حديدي، ويمكن رؤية نافع في الخلف عند النافذة، أصغر سنا، يتكئ على الجدار. يقول الشيخ أثناء تحركه: "وش تبي أكثر من كذا؟ عندك ٣٥ بيت و٢٠ مزرعة، الحرامية والحونشلية ما عندهم هالأسلحة اللي عندك، ولا عندهم الناس اللي ما عندهم مشكلة يموتون وهم يردونهم عن بيوتهم. وأولهم ولدي نافع هنا".

يرفع نافع حاجبيه ويحك رقبته متململا في وقفته. يجلس الشيخ على الكرسي، يهزه بجسده وكأنه يتعمد الاستمتاع بنغم الصرير الذي يحدثه. يبتسم متواطئا مع حمدان وابنه، ولكنه يتوقف حينما لا يبدر منهما أي ردة فعل تماثل استمتاعه، فيخمد النغم الصريري. يتطلع في الرقيب متفحصا، ويبدو خائب الأمل بسبب جدية الموقف التي

تفرضها ملامحه الجامدة، ما يدفعه إلى أن يقول ببطء إيحيائي يرفع حدة العدائية التي استشعرها منه: "موب عشانك بعت بيت أبوك ونقلت للمدينة تحسب الناس بتسوي مثلك".

ولكن حمدان لم يرد عليه بمثلها. صمت، ورفع إحدى البندقيات، قلبها بين يديه. ثم قال: "الحين ذي تبيها تذبح آدمي؟".

فرد الشيخ: "إذا صوبتها في جبهته بتذبحه، وان ما ذبحته عندك السكاكين".

"تبينا ننحر الناس يا بو نافع؟".

"الحين طارديناك وناقلينك لأنك مثوّر في واحد بعد ما جلد له ولد في السوق وانحاش، وتبي تنشب لي ما تبي تذبح حونشلية يطبون علينا كل شهر يسرقون حلالنا؟"، أطرق وكأنه ينتظر إجابة، ثم أكمل بحدة بين الضحك والغضب: "إيه أبيك تنحرهم. أبيك تجزّ رقابهم. أبيهم يشوفون خويهم يسبح في دمه عشان يفكرون عقبها ألف مرة قبل ما يجون هنا. والا تبي تعوّد للمدينة تشتغل فراش مدرسة والا تكدّ بددسنك على طريق الحفر؟".

جف العرق من وجه حمدان وهو جالس في السيارة، وزالت اللمعة الومضية عنه. يضع يده على الدركسون، مسترخيا في جلسته، وعلى وجهه تكشيرة طفيفة.

هدير المكينة القوي وزفزفة الريح من النافذة، ومرفقه المتكئ على حافتها ويده اليسرى المعلقة في الهواء، وهو يتطلع غارقا في شروده.

انتبه وسط الصمت. ثم قال بحدة لم تمسح أثر الشرود الخامل: "لازم تفهم شي، ترى من العيب انك تركض لأي أحد مع كل مشكلة وتخلي الناس تجي تعبّث في ديرتك".

حدق إليه سالم وقد توقف عن الهفّ بجريدة يمسك بها، ثم استكمل الهف حينما تأكد أنه ليس هنالك استطراد يتبع هذا التصريح الغامض الخاطف، بينما ظل حمدان يضع يده اليمنى على الدركسون ويشرع يده اليسرى في الهواء، وهو ينقر بأطراف أصابعه حد الباب العلوي، مسترخيا في المرتبة المخملية الضخمة لفورد موديل ٦٦.

٢

كتفاه عريضان يمسكان جسدا صغيرا ونحيلا، والقرية أمامه ممتدة في مدخلها الشمالي. صورة بانورامية يتوسطها بتركيبة جسده الملمومة النحيلة وعظمي كتفيه المربعين، مثل خيمة منصوبة في الصحراء.

البيوت تتوزع عشوائية. ليست مربعة ومدنية التنظيم، ولكن مشتتة بتصميم فوضوي نزوي. الأجواء متناقضة، هنالك غبار طفيف رسم قشرة غبشية في الهواء ولم يحجب الشمس، وفي الأرض نقع مطر يبدو أنه هطل منذ قليل.

شعره طويل نوعا ما، يصل عرفه إلى عظمة وجنته، ناعم ولكن مبعثر. لحيته خفيفة. يحدق مذهولا، منهمكا، متحمسا، أشعثا. ويبدأ في المشي داخل القرية، يلتهم بحماس عينيه كل شيء يرتسم أمامه.

القرية في مرحلة انتقالية بين البيئة الزراعية والمدنية، تتراوح بيوتها بين الطينية القديمة والخرسان المسلح وعدد قليل بُني بالبلوك. لا ترتفع أكثرها عن الدور الواحد عدا عدة بيوت، تصطف بعشوائية فتبدو بعض السكك المعبدة متعرجة.

يواصل المسافر المشي. الغيوم تتلبد، وهنالك ريح طفيفة تهب.

يمر على أول شارع ترابي معبد، بيتا حجر وثلاثة بيوت طين من طابق واحد، إحداها تنحته نافذة مغطاة بستارة تحركها الريح فتكشف بشكل خاطف شابة تحمل طفلا وتلاعبه. الرجل يحملق فيها بنظرته المتحمسة المنهمكة.

يمر على مدرسة، مبنية بالطين، كتب على لوحتها الخضراء "مدرسة الجنان". تتسع ابتسامته الغريبة لتملأ وجهه استمتاعا وانهماكا.

يبدأ رذاذ مطر طفيف يهطل، يضيء وجهه بحبيبات ماء تسطع وتلمع.

يمر على محل عطارة مفتوح الدفتين، عبارة عن تجويف صغير في بيت، تلوح داخله هيئة رجل لا يُرى جيدا في الظل المعتم، وفي المقدمة أخياش القهوة والشاي والكمون والبهارات، متضوعة الرائحة، ومن الحافة العليا تتدلى أزهار الياسمين وعقود الورد. يتوقف الرجل، بابتسامة لا تكاد ترى، يرفع يده مسلما على الرجل دون أن ينطق بكلمة. الهيئة الظلية في داخل المحل جامدة أولا، ثم ترفع يدها ببطء ترد السلام دون كلام، يضحك الرجل المضيء بالمطر ويكمل المشي.

يلف في آخر الشارع ويلج إلى آخر. بيوت، تتراوح بين حجر وطين، كلها مغلقة في الظهيرة ونوافذها إما مشرعة تكشف داخلها بهيئات أناس تسترخي في خلوة منزلها أو أخرى فارغة لا شيء فيها إلا الأثاث والجماد.

ويواصل المسافر المشي، وعلى يمينه ويساره تبدو المنازل وكأنها تراقبه وهو يتجاوزها. يبتسم الآن باسترخاء، بأقل نشوة وأكثر شرودا.

يتوقف فجأة، ويبدو عليه الذهول، ثم النشوة. ينفرج فمه انبهارا، وتومض في عينيه لمعة البحيرات الصافية في دمعتين كبيرتين تتعلقان في رمشيه، وهو يحدق إلى المسجد أمامه، بمنارته الفارعة.

٣

الشمس ما زالت معمية بسطوع أكثر إبهاما من الظلمة. الأرض مقفرة وأحادية اللون، تغلي السرابَ فقاعياً ومغشّىً أينما وليت وجهك من كل جهاتها.

مركز الشرطة بيت خرساني مسلح من طابق واحد عند مدخل القرية، من جهتها المشرعة على السهب الصحراوي. على جبين المبنى لوحة خضراء كلحتها الشمس حتى اصفرت مثل ورق الخريف: "قسم الشرطة"، وقد كتب على الجدار بجانبها بالطباشير الأبيض: "الله من الفضوة".

تتوقف الفورد موديل ٦٦، وينزل الاثنان.

يدخل حمدان إلى المركز، وينطفئ السطوع في تجويف الظل، فتبين هيئته الفارعة منهكة وخاملة. يمشي متمهلا في الرواق المفروش بزولية رمادية وعلى دفتيه أربع غرف، وتكاد ترى عرق الصيف يقطر في الجدران والجمادات.

يمر بجندي في المطبخ ويسأله مطلا برأسه: "قدرت تصلح الجهاز يا سرور؟"

الجندي سمين وفي فمه زقارة معلقة، يقف أمام فرن تطبخ عليه القهوة. يرد: "لا يا بو عبد الله شكله انعطب خلاص". ثم يضيف: "ترى ماجد يحتريك في المكتب".

"ماجد من؟"

"ماجد ذاك".

"من هو ذاك".

"ماجد اللي طويل وينسّ في مشيته وياكل نص حروفه".

"هذا لغز والا آدمي؟".

فيصرّ سرور: "ماجد، وش دعوى، أكيد تعرفه".

يسحب حمدان رأسه ويسمع سرور يهتف تقريبا: "شوي وبجيب القهوة". يتجه إلى المكتب في آخر الرواق، نفس المكتب الذي وقف فيه قبل عقد ونصف من الزمن ممسكا ببندقية المقمع أمام أبو نافع. ولكن المكان رمم، وصار مسلحا بعد أن كان طينيا.

يدخل المكتب ليجد رجلا يجلس بقلق على طرف الكرسي، انسحب شماغه إلى هامة رأسه، يحدق بذهول في الفراغ. نهض وهو يقول بنبرة غريبة: "هلا هلا أبو عبد الله".

فرد حمدان "هلا ماجد اللي طويل وينسّ في مشيته وياكل نص حروفه".

يتلعثم ماجد بحيرة، ثم يسأل بنبرة سريعة متداخلة وقد أكل فيها نصف حروفه بالفعل: "وشلون زوجتك يابو عبد الله بشر؟".

تحركاته وطريقة كلامه توحي بحالة غير طبيعية. تفحصه حمدان مستكشفا وهو يتجه إلى المكيف. "زوجتي أحسن". ويشير إلى المكيف باستغراب: "شفيك ما شغلته؟"

فيهز رأسه ذاهلا: "مدري". ثم يسأل: "والعيال وشلونهم؟"

يبتسم حمدان وهو يضع يده على فيش المكيف: " هو أنا عندي عيال؟".

فيضحك ماجد بارتباك ويتمتم وقد أكل ثلاثة أرباع حروفه هذه المرة: "يجون يجون ان شاء الله".

فتح المكيف فثار غباره وتناثرت حبيباته في الضوء الأصفر الذي يدخل من النافذة، وكأن نثارا محبحبا تبذّر ليكوّن شبكة ومضية في الهواء.

قال حمدان متجها إلى كرسيه: "وش الطاري؟"

يحدق ماجد فيه ذاهلا، وهو ما زال واقفا، ثم يقول ببطء: "تعرف أبوي؟"

يدخل سرور بدلّة القهوة، ويقف منتظرا بجانب كرسي ماجد، بينما يجلس حمدان على كرسيه المتهالك فيصرّ الحديد مثلما صر حينما جلس عليه أبو نافع، قبل عقد ونصف من الزمن. "نعم أكيد أعرفه رحمة الله عليه".

يجلس ماجد بنفس ارتباكه، وسرور ما زال واقفا بدلة القهوة. المكان بضوئه الخامل وجدران المكتب البيضاء يبعث إحساسا عميقا بالتخثر، والثقل، والأهم الحرارة. تلكأ ماجد في الحديث، بدا وكأنه يحاول اختيار عبارة مناسبة دون جدوى، ثم قال وكأنه متفاجئ مما يقول: "رجع".

حمدان متكئ على ظهر كرسيه بجمود، يحدق بحيرة خاملة ثم يقول: "رجع؟".

فيقول ماجد بنفس الضحكة الشاذة: "رجع".

"وشلون يعني رجع؟".

فيهز ماجد رأسه بجدية وكأنه يحاول فهم السؤال، ثم يقول بعد تفكر: "رجع.. رجع..."، ولكنه لم يجد عبارة أخرى تشرح الموقف، ما جعله يتجه إلى تعديد مرادفات الكلمة: "عوّد.. ردّ.. نكس".

سرور وهو يقف بدلَّة القهوة بجانبه يبدو محتارا. كرشه ناتئ، شنبه ناتئ، أسنانه ناتئة، كل شيء فيه ناتئ تقريبا، والآن فضوله ناتئ إلى آخره أيضا. يتطلع في الرقيب مترقبا. حمدان بدا متشككا رغم أن ملامح وجهه ما زالت جامدة. يقول بحذر: "تقصد حي؟".

فيرفع ماجد يديه بارتياحٍ من وجد الكلمة المناسبة أخيرا: "نعم، يا سلام عليك .. نعم.. حي".

ولكنه لم يجد كلمة أخرى فظل يردد: "حي الآن، نعم هو حي الحين. يتنفس، ويعيش، وكل شي.. نعم طال عمرك، حي".

يدخل سالم ممسكا بجهاز البرقية وهو يقول "ما فيه أمل يتصلح. أنا ما أدري متى بتجي خطوط الهاتف وتفكنا". يرفع رأسه فيلاحظ الموقف "وش السالفة؟".

يقول سرور ذاهلا بهيئته الناتئة وهو يؤشر بالدلة على ماجد: "أبوه عوّد من الموت".

لحظة صمت تامة.

يتوزعون في مواضعهم بتراتبية فنية داخل المكتب، وسط الضوء الأصفر المحبحب والجدران البيضاء المتعرقة، وكأنهم أيضا وسط كادر لوحة. لا صوت إلا صوت المكيف القوي، وخيال الهواجس التي تكاد لغرابتها أن تُسمع متلعثمة في ورطتها دون أن تقال.

٤

يخرجون جميعا من المركز، ويسأل سرور: "أجلس يا بو عبد الله؟"

يقفون عند الباب، يتطلعون في حمدان الذي مرر يده على شعره ببطء متفكرا، ثم قال "لا، تعال".

يقفل سرور الباب ويلحقهم إلى السيارة. يتوقف حمدان قبل أن يركب، يخرج مسدسه، يشيّك على الأسطوانة المكتملة بستة رصاصات لم تطلق منذ سنوات. يعيده إلى جرابه، ثم يركب.

المشوار ثلاث دقائق تقريبا. لم يتكلم أحد.

غرفة الملحق صغيرة، طينية على الطراز القديم. فيها مشب حجري، وهنالك مسن يتربع عن يساره وقد أشعل النار فيه، رغم حر الضحى الجحيمي. يجلس ممسكا بسبحة في يده، ويحدق أمامه صامتا.

حمدان وسالم وسرور يجلسون محشورين في رُبعة بجانب بعضهم، وأمام كل واحد منهم فنجال. وعلى الطرف المقابل يجلس ماجد عن يمين المشب. الجميع يحدق بصمت وترقب وارتباك، عدا الشيخ الذي يقلب في سبحته بتلقائية طبْعية أمام المشب الحجري، ويمكن رؤية بقعة تراب على رقبته.

بدا وكأنه انتبه فجأة وسأل: "وراكم ما تشربون قهوتكم؟". في نبرة صوته حدة، وفي نظراته عنف، ولكن ليس واضحا إن كانت حديثة أم متجذرة من سجيته الاعتيادية كمسن اشتهر بالفظاظة والجلافة.

يرفع حمدان فنجاله مبتسما فيرفع الجميع فناجيلهم ببطء. يشرب، ثم يقول: "هالحر كرهنا في القهوة يا بو ناصر".

فيهز الشايب رأسه متفقا ويقول: "عز الله. حر. **جهنّم**". تمايز اعترافه بالحر الجنهمي – بهذه المفردة تحديدا – مع إشعاله النار في المشب جعل منظره كرتونيا تقريبا، يقدح شكا في أنه يتلاعب بهم، ولكنه يبدو جادا جديةً تصعّب افتراض أنه ممثل بارع إلى هذه الدرجة، بنبرته الحادة ونظراته العدائية المتجذرة من سجيته الاعتيادية.

اتجهوا بأنظارهم إلى الرقيب، الذي يجلس بجمود. إطراقة طويلة. المكان مشمس، وضيق، وجهنمي الحر لدرجة أنه يمكن رؤية الهواء يتعرّق عبر النثار المتموج في الضوء. الجميع يلمعون، إلا الشايب.

قال الرقيب أخيرا: "يا بو ناصر، بغيت أسألك".

"هاه؟"

"تدري في أي يوم أنحن؟"

التفت إليه بكامل جسده، وقال بحدة: "تحسبني خرفت يا ولد.." صمت ثم سأل: "وش اسم أمك أنت؟"

فرد حمدان: "حصة".

"يا ولد حصة. طبعا أدري وش اليوم". ثم أخذ يبرطم: "هالهيس الأربد ابن اللذينا..".

أصر حمدان: "طيب. وشهو اليوم؟"

فهتف غاضبا: "الاثنين".

"والتاريخ؟"

"وش تبي أنت؟"

"سايرني يا بو ناصر".

"٧ صفر"

فهمس سرور بصوت خافت: "لا إله إلا الله".

انتبه الشايب له فالتفت نحوه: "وش تقول انت؟!"

غص سرور بريقه قبل أن يرد وبادره الشايب: "وش أنت؟".

"أنا سرور".

"والزق".

احتُبس على سرور بكل سماته الناتئة، فانسحب مطأطئ الرأس وحشر عينيه في فنجاله.

خطوط عرق ملحية تسيل على صدغ حمدان، وجهه محتقن أكثر رغم جمود ملامحه، يحملق في الشايب متفحصا، وهو يقرص شفته بإبهامه وسبابته.

قال الشايب وهو يتطلع في الجميع: "وش السالفة؟ وش هالأسئلة؟"

فقال ابنه: "ولا شيء. يحققون في قضية سرقة صارت في حدا هالبيوت".

"سرقة؟ هنا؟ الله يخسكم من نسل، والله ان ما وراكم الا الفساد". ثم عاد يلف سبحته وهو يحدق أمامه بجمود.

الجميع يجلس بصمت مطبق، ينتظرون حمدان الذي ما زال يحملق متفحصا. يرفع الشايب حطبة جديدة ويلقي بها إلى النار، يرمقهم جميعا ثم يقول وكأنه يبرر: "إي والله حر. حر. جهنم"، والنار بجانبه تشتعل.

٥

رجل يسير، وعلى امتداد يمينه غسق الشروق الأحمر، يرسمه ظليا بلا ملامح في المدى البعيد. مجرد هيئة سوداء. يقترب من بيت ماجد، يقف عنده، يحاول فيما يبدو فتح الباب ولكنه لا يستطيع، يدفعه بطريقة تبدو أوتوماتيكية.

يخرج ماجد من الحمام شبه نائم، يسمع الحركة عند الباب خارج غرفته، فيتجه إلى الصالة، يحدق في دفتي الخشب المصنوع من الأثل، وأصوات الدفع مستمرة. يتجه بحذر وتيقظ، يفتح الباب ويرى والده، يقف عاريا، وعليه طبقات تراب.

يحملق الشاب في والده بذهول شللي، دون حركة واحدة، بفم مفتوح وعينين زائغتين.

الشايب يتطلع أمامه جامدا، دون تعبيرات تقريبا. يدخل، يتجاوز ابنه. يقف في الصالة، يتطلع حوله. يلتفت بجسده، آليا، يتحرك خطوات إلى الأمام، يتجه إلى رواق معتم يقود إلى الملحق في طرف البيت.

يتبعه ماجد الذي ما زال يحملق بذهول شللي. يمشي الشايب حتى يصل باب الملحق، يفتحه، يدخل، يفك دفة النافذة فيتسرب ضوء الفجر ليقلّم المكان في غبش ضوئي ناعم. يجلس عاريا عند مشب الحطب، ويبدأ في وضع الحطب وإعداد النار.

يقف ماجد عند باب الملحق، مذهولا. ملامحه ما زالت في حالة صدمة شللية. في عينيه لمعان مياه البحيرات الصافية في دمعتين كبيرتين تتعلقان في رمشيه.

الشايب يحرك ويعدل ويحمل الدلة ويقوم بالأشياء الاعتيادية لإشعال المشب، عاريا.

ماجد يحدق إليه، تسقط من عينيه دمعتا ذهول تنحتان خطي نهر لامع في وجهه المتحجر المصدوم.

٦

شمس الضحى ترتفع كرة نار تطبخ على مهل، تدرك وفرة الوقت في الصيف فتخطل في السماء مثل هريرة الأعشى، تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل.

خرج الثلاثة من البيت، ولحقهم ماجد. أمسك الرقيبَ متجها به إلى ظل الجدار، وسأله: "وش السواة؟!"

أطرق حمدان، ثم هز كتفيه: "ما أدري. راقبه زين، ألين نقدر نشوف وش السالفة".

"لكن ..." أطرق الشاب لحظة، كلاهما يغلق عينيه نصف إغلاقة بفعل الشمس، ثم أكمل بخوف حقيقي: "هل هو أبوي صدق؟!".

"وش يكون يعني؟ هذا أبوك من يوم عرفناه".

"طيب وش أسوي الحين؟!".

"انتبه له".

"طيب انتبهت له وبعدين؟"

"بعدين خلها لبعدين".

حدق الشاب بنفس الحدة المتجذرة من سجية العائلة كلها فيما يبدو: "وبس؟!"

وحينما فرَدَ حمدان ذراعيه باستغراب، استدار الشاب ومضى وهو يبرطم: "هالهيس الأربد ابن اللذينا...".

التفت الرقيب بنرفزة منهكة مستنزفة إلى سالم وسرور، قال وهو يمرر يده بنفس البطء على شعره: "ارجعوا بالسيارة للمركز"، وهمس وهو يستدير: "لازم أمشي".

ولكن سالم أعطى مفتاح السيارة لسرور وهتف: "اصبر بجي معك"، ولحق به.

يسيران في الطريق وسط شمس الضحى التي ترتفع كرة نار تطبخ على مهل في السماء.

يمسك سالم قبعته، عيناه أدقّ من الشعرة، الشمس تزعجه، يقلب القبعة بيديه وكأنه يريد أن يلبسها، ولكنه يحدق إلى الرقيب الذي كان يسير حاسر الرأس، فيصرف النظر عن لبسها ويبدو منزعجا.

حمدان يمشي ببطء متثاقل، وضع يديه في جيبيه وظل يحدق أمامه بجمود.

أخيرا، حاذاه سالم حتى التصق به تقريبا، وقال: "وشلون بنحقق في الأمر؟"

فرد حمدان أن يتغير في هيأته أي شيء: "ننتظر".

الانزعاج المتواصل من الشمس كان ظاهرا على سالم، حتى أن حمدان انتبه له شزرا بطرف عينيه، وعلت فمه تكشيرة.

قال الشاب متفكرا وهو يحرك قبعته بين يديه: "وبعدين ما لقى الموت يرجع إلا أبو ناصر، الله من الغثاثة. الرجال حتى الموت ما يبيه".

مرا بجانب دكان العطارة حيث تستقر في مقدمته أخياش القهوة والشاي والكمون والبهارات، متضوعة الرائحة، ومن الحافة العليا تتدلى أزهار الياسمين وعقود الورد. صاحبه هذه المرة يتكئ على الباب، رجل في آخر الثلاثينات من عمره، طويل ونحيل مثل أغلب من في القرية.

"كيف الحكومة اليوم؟" قال لهما بنبرة ساخرة.

رد سالم مبتسما "في خدمة المواطن دائما، كيف الغش والتدليس أخ صقعوب؟".

رد وهو يبتسم بحرش: "مسحوق ومدعوس مثلما عهدتم عنا طال عمرك".

واكتفى حمدان بالتحديق إليه دون تعبير واضح.

يواصلان المشي، وعلى يمينهما ويسارهما تبدو المنازل وكأنها تراقبهما وهما يتجاوزانها تحت شمس قوية ومستحوذة على الحواس.

يقول سالم أخيرا وهو يبدو شاردا: "لكن اللي يصير غير ممكن. والا؟"

انتبه الرقيب بملل، أطرق لحظة ثم قال "شفت اللي صار؟"

هز سالم رأسه بطريقة من يتقبل تكرار هذا الأسلوب في دحض الحجج على مضض: "إيه شفت اللي صار".

"إذن كيف يصير غير ممكن؟". ثم استطرد حمدان: "اللي تقصد تقوله غير معقول".

بدا أن سالم تجاوز سريعا مضضه باعتياد متمرس، وعلق متفكرا: "مثل الشمس".

يلتفت الرقيب إليه باهتمام: "وش تقول انت وش دخل الشمس؟"

فيؤشر سالم بأصبعه إلى فوق دون أن يرفع رأسه: "الشمس. لو انك تشوفها فجأة لأول مرة كان ما صدقتها".

يتطلع الرقيب فيه لحظة وهما يسيران ثم يلتفت إلى الأمام متفكرا، بجدية متفقة. ولكنه يعود ليعلق: "على هالمنطق كل شي في الحياة غير معقول إذن، حتى السيارات والطيارات، حتى الآدمي".

يهز سالم كتفيه: "أبوي كان يقول لا تحاول تفهم الحرمة، كل اللي تسويه ما يدخل المخ".

"إذن الحرمة والشمس، من اللي غير معقول عند سالم وأبوه".

اعترض الشاب: "قل عني اللي تبي، لكن أبوي حكيم".

"الحرمة والشمس على الأقل يتشابهن في شي. النور. هو سبب انجذابنا لهن وهو سبب عمى بصيرتنا قدامهن".

يتطلع سالم في الرقيب بطرف عينه، ويقول بحرش: "تراك شرطي، منت شاعر".

ولكن حمدان يظل محدقا أمامه بجمود، وعلى فمه خط ابتسامة تسليكية مسايرة.

ظهيرة القرية مقفرة بلا مخاليق، ولا حتى الذباب، والمنازل تبدو مثل التوابيت.

يتسلل إليهما صوت مطلق الذيابي من بيت سارا بجانبه وهو يغني: "لا روّحت مع تباريك الخلا الخالي / كنّ الذيابة تنهّش في جوانبها".

قابلا معلما بلباس أجنبي وهو يخرج من مدرسة الجنان الطينية، ويقفل بابها. حياهما مبتسما، فردا التحية بابتسامة أيضا، وتجاوزاه. ثم دخلا إحدى السكك الضيقة التي حجبت عنهما الشمس في ظل كامل، فاضطر سالم إلى أن يسير ملاصقا رئيسه الذي توقف فجأة، التفت نحوه ثم قال: "ليه ما وصلنا خبر عن صاحب القبر الأول؟"

فرد سالم: "لأنه كان لواحد مار من الديرة، الأغلب أنه تركها يوم..." ، صمت مترددا ثم أكمل بغرابة وهو يبتسم: "طلع من قبره!"

بدت الكلمة شاذة، كرتونية، فظلا يحدقان في بعضهما بصمت، وكأنهما سيضحكان. ولكن لمحة امتعاض تلوح على محيا حمدان فجأة، أشاح إلى الفارغ ثم قال بصوت منهك يتنبأ بمصيبة: "التسعة الباقين بيجوننا الحين!"

ظلا واقفان لحظة ليستوعبا هذه الفكرة المربكة التي ستواجههما فور خروجهما من السكة الضيقة الظليلة. استدار حمدان من جديد وخرج منها.

عند المركز المقفل في الجهة المقابلة، كان هنالك ٩ أشخاص ينتظرونهم عند الباب، بينهم سرور الذي يتحرك بارتباك وتوتر. قفزوا جميعا نحو الرقيب وفي مقدمتهم سرور الناتئ وهو يقول بجزع: "طلعوا مثل الشايب، كلهم، جونا من جهنم الحمرا. **جهنّم!**".

شخص ملتح أخذ بذراع حمدان وقال بذعر متواطئ وكأنه يخبره سرا: "ولدي رجع! أبو عشر سنين دخل علينا مفصخ الصبح وراح لسريره وانسدح عليه ولا كن شي صار"

شخص من الحشد علق بما يشبه السخرية: "هه شف شيخنا ولا يدري وش السالفة".

فرد صالح بنبرة دفاعية "لا ما أدري. أنا وش يدريني؟!"

فقال الشخص نفسه: "وشلون الميت يرجع من الموت؟ متى صارت ذي، علمنا. شيخ أوادم أنت والا شيخ بعارين؟!"

فقال صالح بسخط: "أنا منيب عالم ولا شيخ، أنا واحد عندي كتب أنقل منها، ولا واحد منها يقول الميت يرجع قبل يوم القيامة. وحتى لو كنت عالم تظن بتلقى عندي جواب، اللي يصير ما صار".

لحظة صمت تتخللها تمتمات خاطفة.

حمدان متحجر في وقوفه وقد وضع يديه في جيبيه، وكأنه مجرد متفرج ينتظر مع المنتظرين، ولكن الجميع يتطلعون نحوه. بدا وكأنه انتبه للنظرات الحادة المدببة في جبينه، فاعتدل في وقفته بخمول ثم قال أخيرا بصوته الهادئ: "اليوم بنراقب المقبرة أنا والولد. وبنشوف".

واحد من التسعة: "بنجي معك".

فهز حمدان رأسه: "لا ما يحتاج".

"طيب واللي رجعوا؟ وش نسوي بهم؟ هل هم أهلنا أصلا؟"

ولكن حمدان لم يرد، ظل واقفا بصمت. ثم قال: "أحد معه تتن؟"

لحظة صمت. أخرج شخص بكتا ومده لحمدان الذي سحب زقارة بهدوء، أخذها وشمها، قلبها بين أصابع يده اليمنى ومضى نحو المركز، والجميع وراءه.

٧

الشاهي يلمع في البيالة، مثل دم الغزال كما يقال، نقيا وصافيا.

حمدان يتأمل البيالة، بجمود متأمل. لا يوجد أصوات، تلك الحالة الشرود التي تستحوذ على الحواس، فتغبش الأشكال في العين وتكمم الأصوات في الأذن. صوت من البعد، يتضح أكثر، لامرأة تتحدث: "وصالح ما يدري بعد وش اللي صاير!".

تصمت لحظة ثم تسأله: "تتوقع بيقوم أحد الليلة؟"

الزوجة جالسة على الأرض قبالة زوجها الجالس على الجلسة، وجهها يبدو مريضا ومنهكا.

تنفس حمدان بحيرة وبرود، ثم هز كتفيه هزة خفيفة "مدري. يمكن. ليش لا".

ثم عاد يتأمل البيالة، مثل دم الغزال. ولكنه صاد غزالا من قبل، ورأى أن دمه لم يكن مثل لون الشاهي. فما الذي يعرّف الآخر؟ الشاهي أم دم الغزال؟ ما الذي كان أولا، كلمة الموت أم الموت نفسه؟ هل انتهى أول شخص في الحياة وقرر الأحياء أن يقولوا إنه مات، أم أنهم كانوا يعرفون ما الموت فعلا وكانوا يتوقعونه؟ ويقول ساخرا في نفسه إنه سيضيف الموت إلى الشمس والحريم ضمن ما هو غير معقول عنده.

وجهه تبدأه ابتسامة طفيفة لا تكاد ترى، ويقول: "خمسة وسبعين قبر".

ثم يضحك بحيرة مشدوهة: "خمسة وسبعين ميت، خمسة وسبعين جثة. كلها تحترينا".

شرب ما تبقى من الشاهي، واستند على الجلسة ويده اليسرى منبسطة على المركى. يسأل زوجته باستعلاء متبسط مبتسم: "الميت وش يبي يرجع يا فاطمة؟"

فترد زوجته: "من اللي ما يبي يرجع للحياة؟".

"ما قلنا شي. لكنك مت، خلاص. وش تبي من الحياة؟".

ولكن فاطمة لا ترد.

الغرفة واسعة، ولكنهما يجلسان لوحدهما. المكان صامت تماما، ويبدو الصمت فيه معششا لم ينفضه ضجيج من قبل. حمدان يحدق في الفراغ أمامه، الزوجة مطأطئة تحدق في الفرشة. صمت الأماكن المهجورة. المكان فيه وحدة عميقة وبلادة مترسبة.

كسر حمدان الصمت بصوت هامس وكأنه يحادث نفسه: "أتخيل لو رجع أبوي والا أخوي سلطان. كم لهم ميتين؟ والله اني ما أذكر".

تقول فاطمة وهي لم ترفع عينيها عن الأرض ولكنها تبتسم: "الأموات صاروا يرجعون وأنحن حتى حياة وحدة ما نقدر نجيب". ثم ترفع رأسها نحو زوجها، بنفس الابتسامة التي تنكشف الآن عن حرش واستفزاز، بنظرة ثاقبة تتنبأ ردة فعل مضادة.

ولكن حمدان يلتفت نحوها، ويظل على نفس درجة الخمول اللامبالي، يمرر يده على شعره ثم يتكئ بمرفقه على المركى ويتكئ بوجهه على راحته، مسترخيا.

حدقت فيه بترصد يصعّد الحرش: "محد رادك عن ثانية ترى".

ابتسم ويده اليسرى التي يتكئ عليها تغطي جزءا من ابتسامته: "يمكن العيب مني".

"ويمكن لا".

"على أية حال، مابي عيال".

"ليه؟".

ولكنه لم يجب. يحدق في الفراغ بشرود متأمل. همس بعد لحظات: "خمسة وسبعين قبر".

ابتسم مقلدا نافع: "وجع!". ثم ضحك عاليا، مع نفسه تقريبا.

٨

المسجد مكعب متقشف المظهر بثلاث نوافذ في واجهته، أعيد ترميمه ببلوك وصبغة بيضاء، ومن الخلف تمتشق منارته لتكون أطول شاخصٍ بناه الإنسان في القرية، ولكنها أقصر من نخل المزارع في السهل الممتد.

القمر مكتمل، والضوء الشفيف منتشر.

خرجت الجماعة من المسجد دفعة واحدة، أكثر من أربعين رجلا، جميعهم يبدون وكأنهم يتحلقون تدريجيا حول شيء وينتظرون بتسكع، ويتضح من بين الحشد حمدان وهو يلبس جزمته، وخلفه سالم، بلباسهما الأمني.

أخذا البندقيتان المسندتان خارج الباب، ورفع سالم كيسة بجانبها، والجميع يترقب.

قال صالح أخيرا: "متأكد ما تبي أحد يجي معكم؟".

رد حمدان وهو يدلّي البندقية بجانب فخذه: "لا ما يحتاج".

ثم سارا يخترقان الحشد الذي وقف عند المسجد، يتابعهما وهما يقطعان القرية المقمرة نحو الطريق الزراعي الذي تحفه الأشجار الطويلة الظليلة، حيث يتسرب ضوء القمر في العتمة مثل عصيّ خيزران تقلّم الطريق.

يسيران بصمت، وينغّم دبيب خطواتهما حفيفَ الريح في الأغصان فوقهما.

سالم يحمل الكيسة، وبندقيتُه معلقة بحزامها على ظهره. حمدان ما زال يقبض على بندقيته براحة يده. ظلّان يدبّان في الضوء.

ضوء القمر يلمع في شواهد القبور الملساء وحدبة الحصباء. يجلسان في زاوية على فرشة صغيرة، ويتكئان على الجدار. أمامهما ترمس شاهي، وجيك ماء. يحدقان إلى القبور التي تلمع شواهدها وحدبة حصاها.

أصوات الليل القادمة من أمكنة بعيدة، وصور الأشجار التي تلوح في البعد كأنها رسمة تحت الضوء الشفيف. المكان فيه وجوم شبحي رتيب. قد استهلكا نزر السواليف وسط تحفظ الرقيب ومحدودية الشاب، ولم يبقى غير الانتظار. حمدان دون تعبير تقريبا، يكاد يكون مسترخيا، بين النوم واليقظة، وقد مد قدميه وأطلق عينيه إلى الفراغ. سالم يتكئ على الجدار ويتصفح جريدة عمرها أسبوع، علق فجأة: "يقولك غراب جاب ٨ أهداف في مباراة وحدة".

انتبه حمدان، ولم يفهم علاقة الغراب بكرة القدم: "هه؟"

فسّر سالم دون أن يرفع عينيه عن الجريدة: "سعيد غراب جاب ٨ أهداف في مباراة وحدة".

تطلع حمدان أمامه متفكرا، وأخذ يسترجع في ذهنه كل الأسماء الغريبة التي صادفته في حياته، وهي كثيرة هنا، مرتبطة بحيوانات وقوارض ومعالم وتضاريس وسلوكيات. ثم فكر في اسمه، وارتباطه به. ثم فكر في اسم سالم، فالتفت إليه، وتطلع في الشاب، معه بندقية وينتظر حدثا غامضا مقلقا في مقبرة، ولم يبدو له سالما.

سفط سالم الجريدة، وجلس يحدق أمامه.

بدأ يلعب بأصابعه، يفرقعها واحدا تلو الآخر في الصمت. يغير جلسته أكثر من مرة. يتأمل لمعة القبور. يلتفت ليراقب حمدان متعجبا من جموده المتعمد المتصالح مع وجوده. يلقي بصره إلى الأشجار البعيدة، ويتمنى لو أن الليل قصير، وأن الشمس ستشرق جارّة معها يوما اعتياديا لم يسبقه حدث غامض مقلق.

نهض من مكانه ممسكا بندقيته، مشى عدة خطوات مبعثرة. بدا وكأنه يريد أن يقترب من القبور، ولكنه تراجع، ومشى عدة خطوات مبعثرة أخرى في محيط جلستهما.

انتبه حمدان لحركته الكثيرة، وعلت وجهه علامات امتعاض طفيفة وهو يتأمل وقفته المرتبكة، ممسكا بندقيته، دون وضوح نية تظهر على جسده. سأله باستفسار لا حدة فيه: "وراك ما تركد؟".

التفت سالم، حدق إليه ثانية بتورط، ثم قال بصراحة: "الظاهر اني خايف!".

مرت لحظة صمت. ثم قال حمدان بنفس النبرة الهادئة اللاعدائية: "وش ذي اللي ماسكها في يدك؟"

"بندق".

"طيب تخاف من وش بالضبط؟"

عقد سالم حاجبيه بحدةٍ من ارتفع نصاب مضضه إلى حد قد يؤدي إلى ردة فعل غاضبة أمام هذا النوع من الحوارات الاستعلائية المستفزة، ورد: "وهل يقدر البندق انه يرد كل شي؟"

"إذا ما قدر، فهالشي اللي جايك ما راح يرده أي شيء ثاني، وش فيه أقوى من البندق؟ لذا ما فيه فايدة من الخوف. والا؟"

وكأن ماء باردا ألقي عليه، فصمت وأشاح بوجهه. ظل واقفا، بنقمة، يتأمل لمعة القمر في القبور، ويتمنى أن الليل قصير، قصير جدا. ثم جلس على طرف الفرشة.

عاد حمدان إلى تحديقة الوجوم الثابتة أمامه، ممسكا ببيالة الشاهي الذي صبه قبل قليل. ثم التفت خلسة إلى سالم الذي كان يحدق في امتداد القبور، بنفس النظرة الناقمة الحادة. حك لحيته، هنالك شجرة في المدى تميل مع الريح، وكأنها ستغفو، ثم ترتفع مستقيمة من جديد، تشبه رأسا متيقظا يطل على كل شيء حوله.

سأل حمدان: "هل لقبه غراب والا هذا اسمه؟".

انتبه سالم، هز كتفيه: "مدري. ما يفرق، لقبه والا اسمه".

"أغلب أسمائنا ألقاب وعيارات، لكن الفكرة متى يتحول اللقب لاسم. يعني أنا جاني اسم العائلة، ولا طلع مني".

"توّك اصبر. يمكن الناس ما تعرف عيالك الا باسمك وتصيرون الحمدان".

وتذكر حمدان زوجته، وجهها المريض المنهك، وجلستهما في المغرب، ودم الغزال الذي كان يلمع في بيالته ويلمع الآن ما هو مثله في بيالة أخرى. قال: "اليوم كنت أفكر، هل كان الموت معروف، والا يوم صار عطوه اسم". صمت ليترك للجملة فرصة

أن تتمدد، ثم أكمل: "تخيل لو انك ما عمرك شفت الموت، وتشوف واحد مليان حياة يطفي فجأة في أقل من رمشة العين، وش اللي يخلي حالة الموت إذن أقل غرابة من إن الميت نفسه يقوم من موته؟".

يحملق الشاب في رئيسه بوجوم، يرطب شفتيه بلسانه ويرد بحيرة مسايرة: "مدري".

ولكن حمدان يصر: "موب هذا يحسب ضمن نظريتك؟".

"أي نظرية؟".

"غير المعقول".

يبتسم سالم باسترخاء أكثر، ويعلق: "كل هذا تمخّض عن نظريتي؟".

فرد حمدان باستغراب: "تمخض؟! شلون ما غصّيت بالكلمة!".

ضحك سالم: "يوم كنت في فترة التدريب في الرياض كان عندنا أستاذ يكرر هالكلمة دايم. تمخضت الفكرة من هذا الشيء وهكذا".

سأل حمدان: "كم قعدت في الرياض؟".

"تسع شهور". أطرق سالم محدقا إلى رئيسه، ثم تشجع: "هل طلعت قبل كذا من الديرة والمدينة؟".

"رحت الجنوب مرة. قبل عشر سنين".

أطرق حمدان وكأنه يسترجع انطباعا خفيا أو ذكرى مستعصية. صوت خرير ماء، صوت هواء، صوت حبات المانجا الكبيرة تقع من شجرته. رائحة فواكه. عصارة طَعم لاذع. كلها قوية، تستحوذ على حواسه.

قال بشرود: "عموما تقدر تروح لآخر الدنيا بس ما تفرق".

هسهس صرصار الليل فجأة. عاد سالم ليتكئ على الجدار، وقد ترك بندقيته. وقال: "تدري انه كان المفروض أروح للرياض عشان أدرس الجامعة، لكني ما قدرت يوم توفى أخوي منصور. اضطريت أقعد أعاون أبوي في المزرعة".

عقد حمدان حاجبيه مستذكرا: "هو اللي كان شرطي بعد؟"

"إيه".

"وين؟".

"بعيد في الشمال، تبوك. كان المفروض انه يرجع هنا عشان يشتغل معك، وأنا أروح للرياض".

"متى توفى؟".

"قبل سنتين".

خيم صمت طفيف، وطغى شرود متحجر على وجه سالم.

عاد حمدان ليسأل: "مات في الشغل؟"

انتبه سالم من شروده، ثم قال "لا. مات هنا. اقصد مات في المدينة، في المستشفى هناك، لكنه رجع هنا قبل".

"وشلون؟".

"بعد سنة من روحته هناك شاف واحد من جيرانه وهو يموت، دعسته سيارة وأنقطع راسه".

التفت حمدان بكامل وجهه: "أنقطع رأسه؟!"

فمرر سالم يده على رقبته: "أنقطع. مدري وش جاه منصور أنهبل، رجع لنا وهو فيه قلّ صح. كان يصارخ بأشياء ما تنفهم. كان يمسكني فجأة ويحبني بقوة، ثم يقولي كلام مستحيل تفهمه. قد شفت واحد يهذري بكلام ما ينفهم وهو جاد؟ المنظر يروع، تحس انه يقول كلام خطير ومهم بس ما تدري وشهو وتحاول بكل اللي تقدر عليه انك تفهم وشهو، لكنك ما تقدر. مرة من المرات العصر أنحاش وهو تعبان، لحقته ألين وصلنا صَفَّة جبال الصريم عند المخرج الشرقي، كان يركض مثل مهبول ويرفع يده للسما، يشاور على الحفر الغريبة اللي في زاوية كل جبل ويصارخ أبي أعرف وشلون ذا الحفر محفورة بهالطريقة زي بعض من حفرها، أبي أعرف مدري إيش ومدري إيش وليه وليه وأشياء واجد واجد واجد ما أذكرها".

توقف سالم، وبعد مدة سأل حمدان: "ثم؟".

"ثم مات".

"شلون؟".

"تفكك خلاص. طاح علينا مرة، وودیناه لمستشفى المدينة، وبعد أقل من أسبوع مات هناك".

"بس مات من وش؟".

"مدري. وش تفرق مات من وش؟ ذبحه هباله، وراك مستحقر الهبال؟ تراه يقتل. تخيل تفقد عقلك، وش بقي منك إذا راح عقلك؟". أطرق لحظة ثم همس: "الواحد يخاف انه ينام صاحي ويقوم مهبول مثل ما يخاف انه ينام ولا يقوم!".

خيم صمت طويل. قال الرقيب: "اسمها رياح التعري".

"وش هي؟".

"اللي تسبب ذيك الحفر في الجبال".

ابتسم سالم ساخرا تقريبا: "يعني منصور صادق، الله ما خلقها كذا".

"الله خلق الريح اللي خلتها كذا".

ولكنه اعترض: "الله خلقنا بعد، هل إذا ذبحت لي واحد قلت الله اللي ذبحه؟".

ابتسم حمدان محدقا إلى الشاب، وشرب ما بقي من دم الغزال.

عادا ليحدقا بجمود في القبور. وهسيس صرصار الليل وحفيف الريح في الشجر وانعدام الحركة في العتمة وروائح الطبيعة الغضة العذرية تشتبك وتستحوذ على الحواس.

حينما حدث ما حدث، كانت عدة ساعات قد انقضت. حمدان غفى في جلسته وسقط ذقنه على صدره، أما سالم فكان يقف متكئا بمرفقيه على سور المقبرة، ويرمي الحصى ليضرب بها الأحجار الكبيرة.

تخرج أصوات غريبة من القبور الأمامية، لا تكاد تسمع أولا. ثم تعلو. حتى انتبها. هز سالم حمدان فنهض، طلب الرقيب بندقيته، تلقفها منه وأشار إليه أن يتبعه بصمت.

اتجها إلى باب المقبرة، يسيران بمحاذاة القبور بحذر. وقفا على مسافة قريبة منها، وتشبث كل واحد منهما ببندقيته، متوثبا.

أولا، حبيبات تراب تُلفظ من أحد القبور، تصعد في الهواء مثل شخص عطس فتناثر ما يعلكه في فمه، ثم تكرر الشيء نفسه في قبر آخر، وثالث، ثم تدريجيا وبصعوبة كبيرة استغرقت عدة دقائق من اللغط والأصوات الغريبة غير المعرّفة والهيئات الظلية المموهة، انبثق عشرة أشخاص عراة من عشرة قبور. طريقة خروجهم تكاد تبدو اعتيادية، كمن يقوم من تحت أنقاض لحاف ثقيل بعد نومة طويلة. وقفوا يتطلعون حولهم، وكأنهم يقرؤون المشهد ولكن دون وعي، ثم اتجهوا عشوائيا إلى باب المقبرة.

كانا يقفان عند الباب، يحدقان بردة فعل مشلولة. مر بجانبهما سرب الأموات العشرة، عليهم طبقات تراب وفي نظراتهم جمود لا يلتفت.

وقف أحدهم أمام الاثنان فجأة، مسن بلحيته المشعثة وجسده الملطخ بالتراب، نتأ سالم رأسه إليه بانتباه، حدق إليه وسط الغبش، ثم سحب رأسه مرتدا إلى الخلف بجزع، دون أن يتحرك شعرة. الشايب يقف بجمود، في نظراته الجوفاء انعدام تعبير مقشعر، وكأنه ميت فعلا، يتفحص سالم بحدة، بينما يتطلع الشاب مشلولا، وبجانبه الرقيب الذي يراقب الموقف. تحرك الشايب أخيرا ومضى ليلتحق بسربه.

وقفا يراقبان السرب الذي يبتعد عشوائيا. استعاد حمدان انتباهته، فأمسك بذراع سالم وجره معه.

سار الاثنان وراء الأموات العشرة، يتخلفان عنهم عدة خطوات. ٣ مسنين و٤ رجال وعجوزان وفتاة، عراة حفاة، ولكن لا يبدو أن أحدا منهم يدرك ذلك، أو يدرك اللحظة التي هو فيها الآن.

ما زالت أعواد ضوء القمر المنسابة من بين الشجر تقلّم الطريق، فتكشف شيئا من أجسادهم، ويتخلل الصمتَ الموحشَ حفيفُ الأغصان وهسيس صرصار الليل وخشخشة الخطى فوق حبيبات التراب على الطريق.

يسير الجميع بصمت مطبق. سالم يبدو في حالة شلل كلي تشبه تلك التي أصابت ماجد، عيناه تلمعان مثل البحيرات الصافية بدمعتين عالقتين في رمشيه. حمدان يحدق بترقب متوثب، وقبضة متعرقة على البندقية.

همس سالم فجأة: "أبوي!"

فرد الرقيب وعيناه لا تحيدان عن السرب: "عارف".

رفع سالم يده إلى جبينه، عركه بشدة وكأنه يحاول القبض على عقله. ثم كرر: "أبوي!"

"متى توفى؟"

فكر سالم وتمتم كيفما اتفق: "قبل خمس أشهر في ذيك الانفلونزا اللي جت وقشت لها مدري كم قبل ما اشتغل معك".

الجميع يسير بأوتوماتيكية، وكأنهم دمى تحركها خيوط خفية، يقطعون ظلال الظلمة التي يقلمها الضوء بأرجلهم الحافية وأجسادهم المغطاة بالتراب. حينما يمر حمدان بأعواد الضوء، تومض عيناه المعلقتان في السرب. اقترب أخيرا عدة خطوات، فلحقه سالم وهو يتطلع نحو والده من بعيد، ظهره مغطى بطبقة من التراب، ولحيته البيضاء تلمع في ضوء القمر.

وقفا بجانب شاب حليق، على ذقنه جرح موس لم يلتئم، يسير محدقا إلى الأرض، دون تعابير في وجه صخري. سأل الرقيب بلكنة اعتيادية كمن يخاطب شخصا في بقالة: "أنت جاسر ولد مسعود؟"

التفت الشاب بهدوء، ابتسم للرقيب ورد: "إي نعم".

"تعرفني؟"

"طبعا".

"أنا رقيب الشرطة حمدان، وهذا مساعدي سالم".

ولكن سالم ظل يحدق بنظرة ذعر متوجسة. قال الشاب بنفس الابتسامة: "أكيد أعرفك يا بو عبد الله، وش دعوى".

هز حمدان رأسه إيجابا، تردد لحظة ثم قال بلطف: "تدري وين أنت فيه يا جاسر؟"

رد باستغراب: "إيه، أنا موجّه للبيت طال عمرك. ليه تسأل بغيت شي؟"

هز حمدان رأسه مبتسما وقال: "ولا شيء تسلم".

فبادله الشاب بابتسامة امتنان ثم عاد ليحدق بجمود إلى الأرض.

انتبه سالم الذي كان يتابع الحوار للفتاة التي تسير بجانبه، عارية يهتز ثدياها الناهدان بحجم راحة اليد وتختلج حلمتاها الشاخصتان مع كل خطوة، جميلة وغضة بعينين زرقاوين، فتراجع متفاجئا ليصطدم بحمدان الذي كاد أن يسقط أرضا، ما جعله يدفع سالم بغضب، يتحدثان بالأيادي المرفوعة في الهواء بمسرحية دون أن ينطقا بحرف.

تأخرا خطوات قليلة وظلا يراقبان العشرة بصمت.

القرية في الليل ومضية في عمق الصحراء، بلمبات المداخل المضاءة عند كل منزل. هنالك عدد من الأشخاص يتسكعون عند أبواب بيوتهم، يترقبون، بمظهر من استنزف كل ما يمكن أن يفعله، ولم يبقى إلا الانتظار الرث الطويل. يسيرون، يتحدثون، يعودون إلى عتبات بيوتهم، ويراقبون الوقت يدب دبيب النملة أمامهم.

يرون سرب الأموات يدخلون القرية من المدخل الخلفي. يتصلبون، كل في مكانه، بذهول. يراقبون الأموات وهم يتفرقون بنفس الأوتوماتيكية.

يتبع سالم والده، ثم يتوقف فجأة ويعود إلى حمدان، يحدق فيه على وشك الانهيار: "وشلون؟!"

حمدان يضع يديه في جيبه ويقف باستسلام. يقول بعجز اعتذاري تقريبا: "مدري".

يضع سالم يديه عند جبينه وهو يضحك تقريبا: "أنت شفت؟ أبوي!"، ويتطلع فيه بنظرة استجداء طفولي.

ولكن حمدان لا يرد، متصلبا في مكانه، يحدق في الفراغ.

سالم يترقب، بنظرة الاستجداء الطفولي نفسها. ثم يستدير ويمضي وهو يجر قدميه.

يظل حمدان واقفا لوحده في المدخل، يطلق بصره في المدى البانورامي للقرية المكشوفة. يسمع صرخة أنثوية من مكان ما، يعقبها صمت مطبق، يتخلله هسيس أصوات بعيدة، غير معرفة الدرجة أو الماهية.

يمشي في طريقه بين أغلب البيوت المضاءة، دون أن يحدق إليها، بينما تبدو على الدفتين وكأنها تراقبه.

٩

يجلس حمدان على حافة السرير، محدودبا وخاملا، بملابسه الداخلية. شعر رأسه الناعم أشعث، يحدق في الفراغ بين النوم واليقظة. الغرفة تلونها زرقة الفجر الغبشية.

الباب يقرع مرة أخرى، ولكن حمدان لا يتحرك. يرفع عينيه فقط، ولا يتحرك. يصرخ الصوت: "حمدان، افتح الباب". يظل جالسا على السرير بذات الخمول المحدودب. يُقرع الباب مرة ثالثة، فتجلس زوجته وتنهره: "افتح الباب وفكنا، بيبتل يطقه ألين تفتح".

يقوم حمدان متثاقلا، يمشي متئدا. الباب يقرع من جديد. يأخذ وقته، ينزل من الدرج، يذهب إلى الباب، يفتحه. يقف هنالك نافع، بجسده الممتلئ الشبعان، يسد المدى. قال بتأدب لا يخجل من تناقض إصراره المتطفل: "معليش يبو عبدالله قومتك من النوم"، ولكن حمدان حرك يده بعدم ممانعة دون يرد، يقف نحيلا ورثا في ملابسه الداخلية.

قال نافع بتفحص: "ما شفناك في المسجد. أو راحت عليك نومة".

ولكن حمدان لم يرد، ابتسم ابتسامة طفيفة.

المنزل معتم، ومن فرجة الباب ينهمر الضوء الأزرق، ويجعلهما مثل الظلين.

أكمل نافع بتردد: "وشلون جاك قلب تنام؟"

فرد حمدان بنفس الابتسامة الطفيفة وهو يتكئ على دفة الباب: "ما نمت".

"والله ولا أنا". ثم أكمل بقلق: "وش اللي صاير يا حمدان؟"

هز كتفيه: "مدري والله".

تقدم نافع خطوة فولج مدخل البيت، يقف مقابل حمدان أمام فرجة الباب الزرقاء وسط عتمة البيت. ظلان في لحظة تواطئ تختلف درجة التورط فيه بينهما. قال نافع وكأنه سيخبره سرا: "اسمع، لازم نبلغ أمارة المدينة".

رد حمدان بهدوء يكاد ينعدم فيه التواطؤ: "لا"

لحظة صمت. يحدق نافع بحذر يدرك حدوده، ويحرص على ألا يطأ ما يمكن أن يفرض على حمدان ردة فعل عنيفة، قد تجبر نافع على التورط، وهو ما يتجنبه دائما.

رد: "وش اللي لا. أنت مستوعب اللي صاير؟"

"أنت مستوعبه؟"

تطلع نافع بصمت.

قال حمدان: "لو علمناهم بيجون ويعفسون الديرة، الديرة ما عاد هيب صايرة لا لك ولا لي ولا لأي أحد ساكن فيها".

ثم أكمل بنفس الهدوء: "لذا: لا"

يمكن سماع أصوات العصافير، ورؤية الشمس تصعد خافتة في زرقة الأفق من فرجة الباب خلف وقفتهما.

بدا وكأن نافع ينتظر، أو أنه يتجنب الرد، ولذا رفع حمدان درجة التواطئ بينهما ليقول بنبرة هادئة: "وش تظنهم بيسوون يعني؟ ولاشيء. صدقني أنا أعرفهم".

التفت نافع نحو الخارج، يحدق إلى القرية. وبدت سمنته سمنة عجز، أكثر من كونها سمنة شبع.

ضوء الشمس يمتقع أكثر، ويمسح الزرقة الباهتة تدريجيا في الأفق خلفهما.

قال حمدان مصعدا نبرة التواطئ المسيطر: "تعال تقهوى معي قبل ما أروح للقسم".

فهز نافع رأسه وزفر.

ختم حمدان بسؤال يعرف مسبقا إجابته التي سترسخ سيطرته على الموقف كليا: "طيب تبي تجي معي هناك؟ أكيد بنلقاهم ينتظروننا".

فحرك نافع يديه بقلق "لا لا لا ما يحتاج. أنت تكفّي".

ثم سلم واستدار يقطع الطريق، حتى اختفى مترجرجا وراء اللفة، وبقي منظر القرية في صفرة الشروق المتصاعد يسحب عين حمدان المتكئ على حافة الباب ظلاً في انعكاس الضوء.

١٠

يجلس سالم، وهو يحدق بترقب وقلق. والده أمامه، يأكل منهمكا. وبينهما سفرة الأكل.

أم سالم تحدق إلى زوجها بترقب ولكن بقلق أقل، تبتسم له، تمد له الخبز والماء، تقرأ كل حركة تثبّت وجوده الاعتيادي.

قال الأب دون أن يرفع رأسه: "وراك ما تاكل؟"

مد سالم يده للخبزة، وهو يقول: "هذاني آكل"

ينقل بصره بين أبيه وأمه والخبزة. يقطعها ببطء، يختلس عدة نظرات نحو والده الذي يمضغ بإنهماك كلي، وبشيء من العنف، يحرك فمه بقوة وكأنه يلوك حديدا أو لحما لم تمسسه نار.

قال سالم بتردد: "يبه، تحس فيك شي؟"

كشر الأب دون أن يرفع رأسه: "شي؟!"

"أقصد طيب والا تحس انك منت طيب؟"

نهرته الأم: "سالم!".

ولكن والده فاجأه: "وراك مخلٍ أمك تطلع بعباتها الضيقة ذي؟!".

تطلع سالم بحيرة: "نعم؟"

"عباة أمك ضيقة".

"بعد كل هالسنين جاي تنقد على عباتها. وش فيها؟".

فصرخ تقريبا: "أقولك ضيقة ما تسمع أنت".

فرد سالم بحدة متصاعدة: "ما خبرتك تهمك عبيّ الحريم وش فيك".

"أنت ما تستحي؟!".

وقطعت الوالدة الجدال: "بغيرها ان شالله. بجيب وحدة أوسع".

تطلع سالم باستغراب في والدته، التي طلبت أن يصمت ويساير.

أخذ الخبزة وغطها في الفول وأكل، مركزا نظراته في صحنه. عقد حاجبيه وكأنه أحس بشيء يخزه في جبينه، رفع عينيه ببطء وإذا بوالده يرمقه، بنظرة قصدية متفحصة لا تعبير فيها، لا تحيد ولا تتحرك. بادله النظر بتوجس. عينا والده شاخصتان، فيهما رسوخ يكاد يكون بسبب جموده تهديديا. حتى أشاح وعاد إلى انهماكه في الأكل، وكأن شيئا لم يكن، بينما ظل سالم يتطلع فيه بقلق. ثم عاد ليحدق إلى الصحن، واللقمة عصية عن اللوك مثل الغصة في فمه.

هنالك رقعة ضوء تلون وجهه الآن، وهو يجلس بشرود واجم. لا يكاد يسمع شيئا عدا وشيش الصمت، وهو يسترجع في ذهنه نظرة والده الغامضة، ويكاد يشعر بأثرها يلذع جبينه، وسالفة عباءة أمه الغريبة. ثم تبدأ الأصوات بالتسلل تدريجيا إلى شروده، وحينما تكتمل ينتبه. يجلس على كرسي في زاوية مكتب الرقيب، هنالك ما لا يقل عن عشرين شخصا، يتجادلون.

حمدان يقول بحزم: "لا".

ولكن أحدهم أصر: "لازم نروح معك الليلة، كلنا، نبي نشوف".

فرد حمدان بشيء من الغضب الذي يبدو مفتعلا على سمته الهادئ: "تبي تشوف؟!"

"إيه".

"فكر في الموضوع: هل ودك تشوف واحد يقوم من القبر؟!"

صمت الجميع. فأكمل الرقيب وهو يشير إلى حيث يجلس سالم: "إسأله".

تجمعت النظرات وانحشرت في اتجاه سالم. يجلس على كرسي بجانب النافذة، ويتجنب النظر فيهم. يلون وجهه ضوء الشمس، وعلى ملامحه جمود يُفهم أنه انكسار في سياق الموقف، ولكن قد يفهم غضبا في السياق نفسه.

جزم حمدان: "محد بيروح". ثم أكمل بصوت يقلل حدة التوتر: "صلوا الجمعة، عينوا من الله خير، اجتمعوا مثل ما تسوون مع أهلكم وجماعتكم. ولا تعلمون أحد برا الديرة بأي شي. ألين نشوف".

تحرك الواقفون في أمكنتهم، ثم بدؤوا يخرجون فقام حمدان، اتجه إلى سالم الذي ما زال جالسا، سأله: "بتقدر تجي الليلة معي؟"

رفع رأسه بنفس النظرة التي قد تفسر بحسب فهم السياق انكسارا أو غضبا، ثم طأطأه وهو يهزه بنفي دون أن يتكلم.

تجاوزه حمدان إلى صالح الذي يقف في الرواق عند باب المكتب. أصوات الرجال تتناقص مع خروجهم من المركز، حتى انقطعت. وقف الرجلان أمام بعضهما. صالح يكتف يديه متكئا على جدار الرواق الضيق، حمدان يقف وقد وضع يديه في جيبيه، وضوء الشمس ينبض قويا من فرجة الباب في نهاية الممر. قال أخيرا: "وش ناوي تقول في خطبتك؟".

هز صالح كتفيه، وقال: "والله مدري". ثم استدرك: "الناس متوقعة اني أقول شي أصلا؟ وش تقول؟".

اقترح حمدان: "قل انها معجزة".

"ما يكفي. الحياة كلها معجزة. وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. كل شي تعيشه في هالحياة معجزة، كل يوم. السؤال ليش تصير المعجزات".

ابتسم حمدان، وفكر أن قائمة ما هو غير معقول تتسع لتشمل الحياة كاملة.

وسأله صالح ساخرا تقريبا: "هاه ليش صارت ذا المعجزة؟".

فرد حمدان: "أنا عساي أدري ليش صارت ذا المعجزات اللي تصير كل يوم، عشان أدري ليش صارت ذي تحديدا".

فعلق صالح بما يشبه التوبيخ المستهلك اللامبالي في تكراره: "إذا ما تدري فهذي مصيبة".

ولكن حمدان لم يرد. بدا وكأن صالح تذكر شيئا، أخرج من جيبه أداة كرتونية طولها ١٥ سم تقريبا بنهاية مدببة وحادة، تشبه السكين. أعطاها حمدان وهو يقول: "ولدي سواها لي اليوم، يقول ما يصلح تمشي بدون وحدة".

قلبها حمدان بين يديه. رفعها وطعن بها قلبه فانكسر حد الكرتون المدبب، ضحك أمام صالح الذي ابتسم مسايرا. أعادها حمدان إليه فأخذها ووضعها في جيبه، واتجه نحو

بقعة الضوء المشعة في نهاية الرواق، إلى الخارج، حيث تصعد معجزة الشمس في السماء.

١١

يجلس صالح على الأرض، ويراقب ابنه.

لقد نام أول ليلة بالأمس في فراشه، عاريا وكأن شيئا لم يكن، وحينما استيقظ بطبقات التراب على جسده حممته أمه، وألبسته قميصه الذي احتفظت به لتشم رائحته فيه بعد موته، ونزل يلعب، وكأن شيئا لم يكن.

يراقبه صالح. يلعب هذا اليوم بكراتين يقصها ويصنع منها أشكالا. أمام صالح عدة كتب وأوراق على طاولة صغيرة، يحاول أن يكتب منها خطبة الجمعة. أعاد تركيزه إليها، ممسكا بقلم. ولكنه رفع بصره فرأى ابنه يحدق إليه، وكأن النظرات كانت تخزّ جبينه. ابتسم الابن، قال: "يبه تبي أسوي لك بيت؟".

ابتسم صالح "إيه. زين. سو لي".

"أو سكين؟"

رد صالح متفحصا: "ليه سكين؟"

فهز الطفل كتفيه وهو يعود إلى القص: "لازم أي أحد معه سكين. معك سكين؟".

"لا".

"بسوي لك وحدة".

تطلع فيه عدة لحظات، ثم طأطأ على أوراقه. الجمل المشطوبة تشغل نصف الصفحة، ثم جملة واحدة لم يتضح بعد هل ستنجو من الشطب أم لا: "الله يخلق، والله يقبض، والله يبعث، ونحن ليس لنا قدرة أن نعلم أكثر مما يخبرنا به".

الخلود

١

الزمن، مثل المحسوسات والجمادات، يتأثر بالسياق الذي يحتويه. ولذا يبدو الوقت في القرية أبطأ من ذي قبل، وكأنه يجر أحمالَ ترقّبٍ وعجز وحيرة ثقيلة، وتنحفر عجلته في أرواح الناس لتحدث تجويفا تسكنه الهواجس، مثل الرياح في الوديان العظيمة.

ويتجسد مرور الوقت في بطئه عبر صور رثة. المقبرة بالقبور المبقورة في عتمة الليل. إحدى السكك التي تحفها البيوت النائمة في زرقة الفجر. دكان صقعوب وهو يتحرك داخله وهواء البكور يحرك أزهار الياسمين. مركز الشرطة وسرور يجلس بنتوئه المعتاد الخامل على كرسي أمامه في الضحى. المدرسة وعدة اطفال يخرجون منها في الظهيرة. والد ماجد الشايب وهو يقف خارج بيته بجمود مريب في طلعة العصر. ابن صالح وهو يلعب وحيدا في الغروب خارج البيت ووالده من عند عتبة الباب. جاسر بن مسعود وهو يجلس منهمكا تحت سراج في الليل ليركب أعوادا في بعضها وكأنه يصنع قاربا. ثم أخيرا الفتاة التي كانت تمشي عارية بثدييها الناهدين، وهي تجلس في زاوية مظلمة من الحوش قريبا من أهلها، لا يخرج منها سوى جزء من وجهها، وتتطلع أمامها بابتسامة لا تكاد ترى، وتلمع عيناه الزرقاوان.

الوقت بطيء، بطيء جدا، وكل ما فيه متمنع وغامض، ينبسط صحراءً عذريةً تمتد متشابهة إلى مدى البصر بلا طرق أو علامات، ولا يمكن أن يُستدل على المسار فيها إلا بالنظر في السماء. ولكن السماء لم تجبهم، وتُركوا في مواجهة الوقت الذي يجوّف أرواحهم بأحمال الترقب والعجز والحيرة.

يجلس سالم على طرف مرقده المفروش على الأرض، محدودبا وخاملا، بملابسه الداخلية. شعرُ رأسه القصير أشعث، يحدق إلى الفراغ بين النوم واليقظة. الغرفة تلونها زرقة الفجر الغبشية.

مد يده إلى تحت وسادته وسحب مسدسه، حملق فيه بين يديه، ثم وضعه في حجره وواصل التحديق بوجوم أمامه.

يحلق شعر ذقنه أمام مرآة الجدار الصغيرة. ويمكن بسهولة أن يُرى أثر التجويف المحفور في روحه وتجاويف وجهه النحيل، مثل الوديان العظيمة، والريح تشغله وتسكنه وتستحوذ عليه.

يجلس متربعا على سفرة الفطور. يتفحص بجمود والده الذي يعبث بالراديو.

سأله بهدوء غير متقن الافتعال: "أجل ماتذكر أي شي عن مكان مظلم كنت فيه؟"

لم يسمعه والده: "هه؟".

فأعاد سالم السؤال بنفس درجة الهدوء المفتعلة: "أقول ما تذكر أي مكان مظلم كنت فيه؟"

"وشو؟ وش تقول أنت؟ لا ما أذكر".

"ولا نار؟ ولا جنة؟ ولا اثنين يتحاوشونك في قبر يسألونك من ربك؟"

قال والده بهدوء يبدو طبيعيا لا افتعال فيه: "أنت لك فترة وأنت مزعجني، وش فيك؟"، ثم استدرك بابتسامة تقريبا: "تحسب اني انهبلت، مثل أخوك".

تنحدر درجة الهدوء المفتعل عند سالم، وتصل سريعا كالعادة إلى خط الخطورة نحو الحدة المباشرة الطبيعية، فيقول بحدة مكبوحة: "قصدك مثل ولدك".

"إيه. ولدي".

"ليتني أظن انك انهبلت، كان الوضع أسهل".

ولكن والده لم يفقد هدوءه بتاتا: "يا ولد أنت يبيلك من يلعن شكلك صدق".

وهنا انكشف سالم تماما وهو يهتف: "جرب".

"إيه لا تخاف، بجرب، قريب"

"وش تقصد؟ وش ناوي؟"

صرخت الأم التي كانت قد دخلت وهي تحمل صينية الفطور: "سويلم. والله العظيم ان ما عقلت اني لأجلدك أنا".

عاد الأب ليعبث بالراديو وهو يبتسم. ظل سالم يحملق فيه بحدته المكشوفة المعلنة الآن، منهزما، ثم نهض وهو يقول: "بفطر في الدوام".

أخذ يسير بتؤدة في أزقة القرية، وسط صفرة الصباح الباكر، حتى وصل إلى المركز.

فتحه قبل أن يأتي سرور. الشمس لطيفة وناعمة، وهي تدخل غشاوةً ذهبيةً من النوافذ المشرعة. كل شيء يوحي بمكان هادئ، وحميمي، وآمن.

ويمر الوقت، بنفس البطء، بنفس الصور الرثة الغامضة، ويتعمق التجويف في روح سالم، لدرجة أنه يحس بجسده مثل الوديان العظيمة فعلا، والريح البدائية الموحشة تجوب في جوفه، مستحوذة ومستعصية في الوقت نفسه.

الشمس تعتم. ثم تدجن العين. ويلوّن القمر المكتمل القرية أمامه وهو يجلس على كرسي خارج المركز.

يصلي المغرب مع الجماعة، وهو يراقب والده بطرف عينه طوال الصلاة. يستلقي في المسجد دون أن ينام. يصلي العشاء وهو يراقب والده أيضا بطرف عينه.

يجلس على الكرسي خارج المركز في العتمة، تحت سراج أصفر يضيء مكان جلوسه، ويحدق بخمول أمامه.

يمر من الشارع شخص، يسلم عليه فيرد عليه السلام. يهز الكرسي الذي يصدر صريرا نغميا، فيواصل هزه.

يخرج حمدان من المركز، يتطلع إليه لحظة، ويقول: "كنت أظنك مشيت اليوم أبكر".

هز سالم رأسه بنفي، وهو يهز الكرسي. اقترب حمدان ليقف بجانبه، والصرير يشغَل الصوت بينهما، يحدقان سويا إلى الشارع. التفت حمدان إلى الشاب، وتأمل هامة رأسه قليلا. ثم سأله أخيرا: "معك تتن؟".

أخرج سالم البكت. أخذ واحدة ومدّ لحمدان أخرى. يدخنان بصمت، وهما يحدقان سويا إلى الشارع.

سأل حمدان بتلقائية: "ليش فيه سروال منشور في المطبخ؟".

كان سرور الذي اعتاد استغلال نتوءاته المميزة قد وضع بيالة الشاهي على كرشته الناتئة، وحينما ضحك إثر نكتة قيلت له تحركت وانسكبت على سرواله، فخلعه وفركه وغسله ونشره على طاولة المطبخ، وقرر العودة إلى منزله بسرواله الداخلي لارتباطه بموعد مهم على حسب تعبيره مع زوجته، والرجوع لاحقا إلى سرواله. ولكنه لم يعد حتى الآن. شرح سالم الحادثة بأقل عبارات ممكنة لحمدان، الذي أنصت دون تعليق. رمى زقارته أخيرا وقال: "لا تنسى تصك المركز".

فأكد سالم: "أكيد. ما نبي سروال سرور ينسرق".

يسير حمدان بمشيته التي يمكن أن يُعرف من خلالها، ويبتعد. يراقبه سالم بنظراته الجامدة، ثم يعود ليهز الكرسي.

الكثير من الوقت. والسماء ما زالت صامتة، ولا أثر لطرق أو علامات في الصحراء المتشابهة على مد البصر.

يقف سالم أمام فرن المطبخ في المركز، ينتظر الماء أن يغلي. يدهن جبنة في خبزة تميس. يأخذ إبريقه وخبزته ويعود إلى الخارج. يجلس على الكرسي نفسه، يشرب الشاهي، ويأكل. والقرية الآن فارغة تماما، مثل جثة، جسد فيه أثر الحياة التي توقفت.

يغلق المركز أخيرا في منتصف الليل، ويسير متمهلا في الطرق المعتمة، بمشيةٍ تتشكل سماتها رويدا لتكون خاصة به، يمكن أن يعرف بها. المنازل عن يساره منطفئة لا ضوء فيها، والنوافذ فوهاتُ كهوف معتمة. تنطوي جميعها عن يساره وهو يتجاوزها، منزلا تلو الآخر. يتوقف فجأة، كمن رأى شيئا ولم يستوعبه في لحظته، يلتفت إلى البيت الذي يستقر على امتداد حاجبه الأيسر، بعد أن تجاوزه بعدة خطوات، حيث يظهر في إحدى النوافذ وجه الفتاة ذات الثديين الناهدين، ومن الغرفة ضوء خافت

يكشف جزءا من وجهها وشعرها. تقف دون حراك، مؤطَّرة في النافذة، ظلية الهيئة، تبعث إيحاء مقلقا. يحدق سالم إليها. الفتاة تتضح ملامحها أكثر مع ألفة العين، جميلة وغضة بعينيها الزرقاوين. تبدأ بالابتسام بفرح، بغبطة. ويعلو وجهَ سالم توجسٌ منقبض. تضحك، ثم تصمت فجأة بارتباك أمام انعدام التفاعل. في نظرتها تهور متواطئ يبحث عن إشارة للموافقة عليه، لا تتلقاه ولكنها تبتسم بخبث عاقدة العزم. ترفع قميصها، وتكشف عن ثدييها الناهدين بحجم راحة اليد، ثم تنزله وتعاود الضحك. يتحول التوجس في وجه سالم إلى ما يشبه الذعر. يتجاوزها، يمشي متجها إلى منزلهم، يلتفت إليها وهو يمشي، تتكئ الآن على حافة النافذة، بأريحيةِ من يطلّ على بحر أو غابة، تلاحقه بنظراتها، والريح تحرك شعرها. يدخل البيت، يغلق الباب وراءه، ويقف في الظلمة ذاهلا. يدخل الصالة، يشعل سراجا معلقا، ويظل واقفا يحملق في الفراغ، يحاول استيعاب ما شاهده. يرى الراديو الذي كان والده يعبث فيه ملقى على الجلسة الأرضية، يتطلع فيه لحظة ثم يتجه إليه. يقلبه بين يديه، يفتحه فيسمع ذلك الفحيح الموجي الشبحي الذي يوحي بأصوات ماورائية تعتمل في خلفية الكون، تبعث قشعريرة في جلده. يلفّ بَكرة الإذاعات شعرةً فيخرج صوت قارئ وسط الضوء الخافت، وكأنه ينتظر دوره: "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿ ١٢ ﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿ ١٣ ﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿ ١٤ ﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿ ١٥ ﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿ ١٦ ﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿ ١٧ ﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ ١٨ ﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿ ١٩ ﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿ ٢٠ ﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿ ٢١ ﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾.

٢

يتقلب حمدان على سريره في الظلام. بجانبه نافذة مشرع نصفها، تكشف ضوء القمر الشفيف. قام أخيرا. زوجته تسعل بإنهاك ومرض وهي نائمة. يقف بتورط وسط الغرفة، نصفه في الظلمة والنصف الآخر يغطيه الضوء من النافذة. يلتفت إليها، يسير نحوها، يتوقف أمامها بملابسه الداخلية. يرى المساحة الشاسعة المفتوحة للصحراء من الدور الثاني، عذريةً تمتد متشابهة إلى مدى البصر تحت ضوء القمر، وفي آخرها يومض ضوء سيارة تسير في طريق لا يمكن تحديده، تومض فقط في البعد، مثل علامة.

الوقت بطيء لدرجة أن الصور تتكرر، وتتداخل، وتزرع بذرة شك في مصداقية ما يُرى.

صورة يده اليمنى على دركسون سيارته الفورد ٦٦، ويده اليسرى مشرعة في الهواء خارج النافذة. يبدو ظلاً بقميص بيتي مخطط، ولا صوت إلا هدير المكينة وزفزفة الريح.

صورته وهو يجلس في المقبرة، في نفس الموضع الذي جلس فيه مع سالم، وينتظر.

صورته وهو يقف ليتفحص القبور المبقورة الجديدة، وأصوات الليل من حوله.

ثم صورته واقفا عند النافذة، بنفس هيئته وملابسه الداخلية، ولكنه لا يرى إلا الصحراء العذرية المتشابهة دون أن تبرز في بُعدها ومضة سيارة الفورد ٦٦، مثل علامة على طريق.

يسمع صوت زوجته: "ما راح يقوم أحد خلاص".

يلتفت حمدان إلى الخلف. الزاوية المؤدية إلى دورة المياه مظلمة، ويبرز منها الصوت مرة أخرى، وكأنه يخرج من الظلام: "لك ست شهور وأنت تحتري".

تبرز هيئة فاطمة ببطء، وهي تترنح متعبة، وتدخل مسار الضوء. تركع على الأرض وتحمل قميصه البيتي، وتعلقه.

حمدان ما زال واقفا عند النافذة، يحدق إلى زوجته. قال: "كنت أحسبك نايمة".

وقفت زوجته مستنزفة عند معلاق الثياب، محدودبة بقميصها وشعرها المبعثر مثل عجوز، تحدق إلى الأرض. قالت بصوت مجرح: "لا. كنت أطرش"

"هو أنت أكلت شي عشان تطرشين؟"

ولكن زوجته لا ترد، تحدق إلى الأرض. ترفع رأسها بحيرة: "هاه؟"

يقول حمدان: "أنت أكلت شي؟"

"لا".

"أجل وش كنت تطرشين؟"

"مدري. هوا؟ أطرش ولا يطلع شي. يطلع بس هوا".

تتحرك مترنحة نحو السرير وتختفي في الظلمة. نسمع صرصرة الحديد، ثم صوتها الخافت الرقيق: "حمدان".

"نعم يا فاطمة".

تسأل بحيرة لا حزن أو نقمة فيها: "ليه ما مت للحين؟".

"تبين تموتين يعني؟"

"أتكلم صادقة. مابي أموت، لكن ليه ما مت؟ كان المفروض أموت من كم شهر".

ولكنه لا يرد. يعود إلى فراشه بجانبها. يعلم أنه لن ينام، ولكنها تلتصق به، وتنام هي في حضنه.

ضوء الصباح يلون وجهه، يجلس وراء طاولته في المركز. يتكئ بمرفقه على مسند الكرسي ويتكئ بوجهه على راحة يده، محدقا إلى بيالة الشاهي بحمرتها النقية، منسدلا في كرسيه بخمول.

"في ظنك محد بيدري يعني؟" يقول صالح الذي يجلس أمامه. على الطاولة إبريق الشاهي وبيالتان تلمعان حمرة، والغرفة مشمسة بضوء أصفر.

يستنشق حمدان ويزفر بخمول: "لنا ست شهور محد درى".

"الأخبار تمشي بطيئة وسط هالمقطعة. لا تلفونات ولحد يطلع من هنا إلا ثلاثة بالكثير. بس راح توصل بعدين".

"بنتعامل مع البعدين في وقته".

لحظة صمت. يسأله صالح بحذر: "للحين تروح للمقبرة الليل؟"

يلتفت حمدان إلى النافذة حيث الضوء الأصفر القوي. يرد: "أحيانا. وأحيانا أحس اني أروح هناك، أحس بالهوى والسيارة والجلسة، وأنا واقف في غرفتي".

لحظة صمت. يشيح حمدان بصره عن النافذة. يستنشق من جديد ويزفر بخمول. يسأل صالح: "معك تتن؟"

فيرد صالح باستنكار: "معي تتن؟"

يضحك حمدان: "خطأ مطبعي".

"اشتر تتن وابدا دخن بدل ما تنشب فيك عيارة "حمدان معك تتن". والا تراي بنشرها".

يبتسم حمدان باسترخاء. يعتدل في جلسته، يتكئ بيديه على الطاولة، ويقول وكأنه يضرب عداد تفكيره ليبدأ من جديد: "٢٦ واحد قبل ست شهور. ليه؟"، رفع رأسه وفسر: "كلهم ما راح على وفاته أكثر من سنة وأربع شهور تقريبا، وكأن فيه حاجة مؤقتة".

تحرك صالح في كرسيه بتكشيرة: "يا خي أشغلتنا"

يرمقه حمدان بابتسامة ذات معنى، يقول بحذر: "وش أخبار الولد؟"

ولكن صالح لا يرد. يتطلع بصمت. يمد يده للإبريق ويملأ بيالته وهو يقول: "بتروح للعرس اليوم والا بتسحب؟"

قال حمدان بسخرية كسولة: "عرس!"

"إلى متى تبي العالم معلقة حياتها يعني؟".

أصرّ باستفزاز: "تعودنا على اللي صار يعني مثل ما تعودنا على الشمس؟ وين فكرة ان المعجزات لا تحدث إلا لسبب؟ وين السبب؟ للحين أطلبك سبب".

"بتروح والا لا؟".

"بروح، بروح".

٣

فرشوا الزوليات الكبيرة في الساحة الفارغة التي تحوطها البيوت من كل جهة، وسط القرية. علقت السرج على الجدران، ومدت حبال الضوء على الأسطح، فبدت البقعة مثل شمس صغيرة، تومض وسط عتمة القرية، حيث يمشي حمدان من بيته متجها إليها، وقد لبس ثوبا وشماغا وشخص بعقاله الكبير.

يقترب منها، وتعلو الأصوات تدريجيا.

بدأ الناس يتجمعون، يضعون اللمسات الأخيرة. الرجل الذي يوجه الجميع مسن في التسعين من عمره، اعترض طريق حمدان وهو يقول بسخرية: "لا! أبو عبدالله عندنا. أخبرك تنحّش عن العروس".

فهز حمدان كتفيه: "عشاني فوتّ عرسين صرت أتنحّش".

"آخر مرة شفتك في عرس كان شعرك أسود".

"ما بيني وبين العروس شي يابو راضي. كل ما هنالك إني ما لي في الصحبة".

فكشّر المسن وقال بحدة: "لا تصير مثل شايب قريح اللي ناشب لنا من العصر، يقول ليش جايبين دفوف وليش تبون تسمرون، ما يجوز".

"من شايب قريح؟".

"أبو سالم!".

تطلع حمدان بحيرة: "أخبره يغني منوّل!".

فرد المسن ونظراته شاردة تتابع التجهيزات: "أنا أدري عنه. الموت غيّره ثم رجعه لنا". ثم استطرد محدقا إلى الرقيب: "اللي يموت المفروض ما يرجع".

ولكن حمدان لم يرد. فربّت الشايب على كفته وختم: "المهم جيتك بالدنيا يا بو عبدالله. أسعدتني وأبهجتني. هذي الساعة المباركة"، ومشى.

أحد الذي يرتبون العرس كان سالم، بثوبه وشماغه وعقاله الكبير أيضا. حينما انتبه لحمدان ركض تقريبا واعترض طريقه وهو يقول بانفعال طفيف: "اسمع، لازم نتكلم عن اللي صاير".

وقف حمدان. أكمل سالم وقد ابتعد بالرقيب قليلا فخفتت الأصوات ولكنها بقيت في الخلفية: "تعرف البنت اللي طلعت من القبر ذاك اليوم؟ بنت جارنا خالد؟".

هز حمدان رأسه مسايرا.

قال سالم: اسمها لطيفة. أمي تعرف أهلها".

"طيب؟"

"عيونها كانت سود، لكنهن صارن زرق يوم قامت".

"وبعدين؟"

تردد سالم، بارتباك يكاد يكون خجلا. ثم قال: "البارح ورتني صدرها!"

قطب حمدان حاجبيه، حك صدغه ببطء. هز رأسه بخفة ورفع يده مستنكرا وهو يضحك تقريبا: "وشو؟!"

"أقولك ورتني صدرها! كانت واقفة عند الدريشة وكنت ماشي ويوم ألتفت ورتني صدرها!".

لحظة صمت طويلة. حمدان بلا تعبير تقريبا. قال أخيرا باستسلام: "وش تبيني أسوي طيب؟"

برطم سالم متعثرا في بداية الجملة، توقف ثم هتف تقريبا: "أنت سامع وش أنا قاعد أقول؟!"، ثم أطلق ضحكة عصبية.

فرد مسايرا "إلا. وحدة ورتك صدرها في دريشة وأنت تمشي. طيب. مبروك، تستاهل".

وهم باستكمال السير فوضع سالم يده على ساعده وأوقفه، قال مبتسما بانفعال مكتمل: "أنا خلاص ترى، هاه؟ فيه شي، شي، شي مدري وشو".

"شي مثل وشو؟".

"مثل ان وحدة مهبولة تطلع ديودها لي وأنا أمشي في الشارع!"

ولكن حمدان لم يرد، ظل يتطلع بجمود. فتغيرت ملامح سالم الذي تأمله قليلا ثم قال: "أها. من زمان قل كذا. فهمت. أنا أكذب أصلا!".

"ما قلت انك تكذب".

"لو غيري جايك كان ردة فعلك مختلفة".

" لك ست شهور وأنت تقول فيه شي وابوي فيه شي والديرة فيها شي. ولا شي صار".

فتراجع سالم وعقاله انسحب إلى هامة رأسه وهو يقول بابتسامة عصبية: "طيب طيب. بكرة تطلّع لك ذا الخبلة ديودها والا واحد من ذا اللي قاموا يطلع لك خصاه وتجي تقولي صح عليك يا سالم أنت فاهم يا سالم أنت اللي علمنا يا سالم". واستدار وهو يبرطم ويحرك يديه مخاطبا الهواء بعصبية.

المكان قد اكتمل تقريبا، وبدأ المعازيم بالتوافد.

الدفوف والطبول عند شبة النار في الطرف، والضوء الأصفر يغلف البقعة مثل فقاعة ضخمة. المكان يضج باللون والحركة ودخان البخور. الناس يسلمون على بعضهم، ثم يتحلقون أخيرا في الجلسة.

تهدأ الأصوات، ثم تنقطع، والأعين تتجه إلى الرجل الذي يجلس في رأس المجلس، ممسكا الطبل، بشارب ولحية خفيفة. ولكن صوتا رخيما وجميلا يفاجئ الجميع: "بسم الله الرحمن الرحيم"، فيلتفتون نحو مصدره، أبو سالم الذي يجلس في أقصى الحلقة، ويكمل مستحوذا على الموقف: "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)".

لحظة صمت أعقبت ذلك، والجميع مطرق. سالم يبحث عن حمدان ليرى ردة فعله، ويعيره بحركة من وجهه يمكن ترجمتها "شفت؟!"، ولكن حمدان كان مطرقا يحدق بغموض إلى أبي سالم. ثم قال أبو راضي ساخرا: "جزاك الله خير يا ابراهيم. تونا مصلين العشاء وبنصلي اذا عودنا لبيوتنا الوتر وبنقوم نصلي الفجر. بس دامنا قاعدين في عرس الولد خلنا نسمع وش بيصير في يوم القيامة".

ولكن أبا سالم ظل صامتا، بنظرة محايدة هادئة، غير عدائية. انتظر أبو راضي أي ردة فعل، ليختار على إثرها ردة فعله. وحينما لم يبدر شيء من أبي سالم، التفت إلى الطبال وصرخ: "عطنا ديم الخزام يا سعود".

وبدأ الضرب على سامرية "حي المنازل بديم خزام / اتحية الجار للجاره". لينهض أبو سالم، ويمشي خارج فقاعة الضوء.

يشارك الكثيرون في الضرب على الدفوف، البقية يصفقون، ويرقصون بالسيوف، حتى سالم تقدم ورقص أمام إصرار أحدهم. ومثل ما يحدث في جمعات الطرب، تنصهر الفردانية في منظر الجمع، ويصير المشهد كتلة واحدة، غير معرفة الأفراد، تنجرف تيارا تصعب مقاومته، ويمنح كل تفصيل – مثل أثر الدخون المنطفئ، أو السواليف العابرة، أو النغمة الارتجالية – مكانا مبررا في نشوة لا تعترف بالأخطاء. فكل ما يحدث جزء من التجربة، حتى الخطأ. الطرب يصهر كل شيء. ولكن من بين الحشد، يبرز جاسر بن مسعود، في أقصى الطرف. كان قد سكب ماء أو قهوة على التراب وبدأ يصنع شيئا غير واضح المعالم، منهمكا في محاولاته لدرجة أنه يبدو نشازا يكاد

يحط ذلك الاتحاد الجمعي الجارف. سالم الذي كان قد توقف عن الرقص متكئا على إحدى العواميد وقد نسف شماغه على كتفه، انتبه له، وأخذ يراقبه باستغراب يتصاعد. وجه جاسر شارد وزائغ، غائب تماما في قوقعة ما يعمل، ينكتم الضجيج تدريجيا، حبة حبة، حتى ينقطع تماما وتحل مكانه همسات ووسوسات، هسيس كلام مشفر متشابك يتصاعد مع ملامح وجهه المنفعلة أكثر، تخفت الإضاءة، ثم تتلاشى والهسيس المغمغم ما زال يدور. هنالك صورة لصف أشخاص يقفون في ظلمة خافتة، لا تظهر منهم إلا هيئات أجسادهم الظلية، يقفون متلاصقين، أحدهم أضيء وجهه بنور قوي، يُرى من بعيد، وحينما تقترب منه ينكشف أنه طفل، أصلع تماما وبلا حواجب أو رموش، نظراته جاحظة بحماس، وجهه محتقن بالدم، عروقه جاحظة، يبدو أن حماسه يتصاعد إلى ذروة ما، ثم ينفجر أخيرا عن صرخة عالية يرفع جاسر على إثرها رأسه، وسط كل الضوء والضجيج والطرب الجارف، وهو يطرف بعينيه متعرقا وكأنه أفاق فجأة من نوم، يتنفس بقوة وعلى ملامحه جزع، يطرف بعينيه كثيرا ويتلفت فيرى سالم يخزه متفحصا، لا يحيد بنظراته عنه. يحدقان إلى بعضهما وسط كل الرقص والضوء، ثم يعود جاسر منكسرا ليحدودب فوق الطين الذي كان يعمله: قبر.

الريح التي تجوب روح سالم تزداد عنفا مع تغوّر التجويف العميق، ويكاد يشعر بهبوبها داخل جسده، مثل الدُّوار، فيحس بخفة في رأسه، وبسطوع في عينيه. ويشعر أنه سيسقط في حفرة غائرة لو لم يبتعد حالا، عن كل شيء.

يسحب جسده المتكئ على العامود، ويخرج من دائرة الناس والضوء والطرب. يمشي بتثاقل في امتداد الشارع. الغناء يتساقط تدريجيا بابتعاده عنه، متوازيا مع تساقط مرأى بقعة الضوء التي يخلفها وراءه، يتساقطان سويا بهدوء، ويحل محلهما صمت وخشخشة أقدام وعتمة.

يسمع صوت أقدامه، وهو يمشي. ثم يخيل إليه أن الصوت أعلى مما يجب، فيتوقف بشك، يترقب، دون أن يسمع شيئا، ولكنه يثق بحدسه فيلتفت أخيرا ليرى لطيفة واقفة خلفه، تتطلع فيه مبتسمة. يحدق إليها وسط ضوء القمر الضعيف. في ملامحها تعبير ألفة هادئة، وكأنها امرأة تربطها به سنوات من المؤانسة، لا انفعال فيها.

الريح تحمل زفرة بعيدة من لحن سامري طروب، تنقطع سريعا ويعود الصمت. يقول سالم بحذر مترقب: "وش تبين يا حرمة؟"

تضحك الفتاة وترد: "حرمة؟"

تطرق لحظة. عيناها الزرقاوان الواسعتان تومضان مثل البحيرات الصافية العظيمة. تتقدم خطوة واحدة، تسأله بخفوت: "تذكرني؟"

ولكنه لا يرد، فتصرّ: "تذكر يوم كنا نلعب دايم؟ كنا نلعب دايم".

تترك مساحة للجملة أن ترسخ أثرها الاستحضاري، ثم تعلق مبتسمة بنفس درجة الألفة الهادئة غير المنفعلة: "كنت حلو، كنت حلو مرة. تذكر؟ كنت أكبر مني، وكنت حلو. للحين حلو".

ملامحها لا تخذلها أبدا، لا تفضح أي ذرة انفعال، ترسخ انطباع أن لها تاريخا معه، عميقا ومتأصلا. في المشهد برود متجمد منوم. المشاعر المعلنة لا تتجاوز حدها الصوتي الرخيم. وكأنه حلم.

"كنت تفصخ ملابسك عشان تسبح في البركة"، وتردف بكلمة تحفر رخيمةً في السمع: "تذكر؟".

تتقدم خطوة أخرى: "كان جسمك أبيض وكبير وقوي". تطرق لحظة ثم تُوسّع ابتسامتها: "كنت مثل جبل".

سالم يقف دون أن تصدر منه حركة واحدة، بينما تبدو كل حركة لدى الفتاة، منحوتة بعناية. "كنت مقدر أنام إلا وأنا أتخيلك. كنت أرتعش بس لأني شفتك. كنت أعبدك. أنا للحين أعبدك".

لحظة صمت. يقفان كأنهما رسمة. همس سالم بصوت لا يكاد يسمع: "واللعنة أنت وش أنت؟!"

تتسع ابتسامتها. ترد بنبرة إيحائية: "أنا أي شي تبيني أصيره. قل أي شي، وأكون هو".

لحظة صمت أطول. تراجع سالم خطوتان إلى الخلف. لم تتحرك، تقف في مكانها. ظل يتراجع. تغرق هي أكثر في البُعد والظلمة، حتى اختفت كليا وهو يخرج من الشارع نحو سكة مضاءة بفانوس معلق على أحد المنازل. يقف محملقا في الشارع المعتم الذي خرج منه، كأنه فوهة كهف تكاد لظلمتها أن تكون غير موجودة. يظل واقفا، وكأنه يخاير إن كان ما حدث قد حدث فعلا، أم أن الريح التي تجوب تجويف روحه أوهمته إياه.

ثم استدار ومضى متجاوزا الفانوس، حتى اختفى هو أيضا في البُعد والظلمة.

٤

ولأن الروح طبقةٌ في الجسد، فإن ما تمر به يتجسّم، ويظهر أثرا محسوسا. ولذا يستشعر سالم دبيب الحركة في جسده، حيث تتشكل سماتٌ وخصال جديدة. ملامحه، مشدودة

أكثر، وكأن عظام وجهه – وجنتاه، فكاه، جبينه – قد تمددت. عيناه، أعمق أثرا، وكأن جفناه انكمشا وتحددّ رسم رمشيه وثقل سواد حدقتيه. حركة جسده، متوازية مع الزمن الذي يمر بطيئا، ولذا تستغرق وقتها في التمظهر، حتى تبدو حركاته متنبئة ومتئدة ومتفحصة.

يجلس على الكرسي خارج القسم، بملابسه الداخلية بعد أن خلع ثوبه وعلقه في المطبخ، يحدق إلى القرية النائمة بجمود خامل.

هنالك صمت شبحي في الشوارع الهامدة وواجهات البيوت المطفأة في الظلمة، أكثر من ذي قبل، وكأن قوى الحيوية استهلكت وجودها كاملا في ضخ الحياة في العرس، ثم نامت كتلةً واحدة ليستحوذ هذا الوجوم الشبحي على المكان بأكمله. يحدق سالم بنفس جموده الخامل المشدود المتئد المتنبئ، ويدرك بجسده دون عقله أنه شخص مختلف الآن، وأن لديه القدرة على أن يستشف اختلالات الكون الغامضة. ومن بينها تبرز صورة لطيفة، الغضة في الظلمة. تجوب ريحا في وادي ذهنه. يتخيلها، ويجسدها. جلدها، خصرها، تكوّر نهديها، طعم شفتيها. يتخيل باطن فخذيها، وملمسها في يديه، وعلى صدره. وتتشكل خطيئة في ذهنه، حتى لو قرر الزواج منها، سيظل ينظر إليها خطيئة مجلوبة من بعد آخر، بما يشبه العمد، لتستهدفه.

يقوم أخيرا، يدخل القسم ويتجه إلى الكنبة في مكتب الرقيب. يستلقي عليها، ويجد أنه أكثر تحكما بذهنه، حتى أنه نعس فور أن أغلق عينيه.

ولكن أصوات من الخارج أيقظته. أصوات جدال صارخ، وأشخاص يتلاحقون. يقوم من مكانه ويعود إلى باب القسم. الأصوات أقوى ولكنها ما زالت غير محددة. يعود ليلبس ثوبه، ويخرج من جديد.

على الطرف الآخر من القرية، يستلقي حمدان في سريره، بعد أن نعس فور إغلاقه عينيه، كما اعتاد دائما. ولكن صوتا صارخا من الخارج يوقظه: "حمدان.. حمدان"

يقوم جالسا في سريره. الصوت قوي، خارج منزله تماما.

"حمدان.. إطلع إطلع يا حمدان"، الصوت فيه نبرة غضب هستيرية، قد يقضي الإنسان دهرا كاملا دون أن يسمعها. يقوم، يتجه إلى النافذة، يرى الواقف من الدور الثاني ولكن ملامحه غير واضحة.

"حمداااااان".

يقف جاسر بن مسعود خارج البيت، جلده يلمع عرقا، شعره منتفش، صدره مكشوف عن بقع حمراء تشبه دما يابسا. يحدق بنظرات زائغة جنونية أمامه.

يخرج حمدان من غرفة النوم، تتبعه زوجته التي تسأله: "وش اللي صاير؟"

يفتح دولابا في الصالة، ويخرج منه بندقية.

الصوت يصله وهو يصرخ بصوت ملحن غريب، وكأنه يغني أغنية: "يا حمدان يا حمدان، اطلع اطلع يا حمدان".

يقف جاسر وهو يغني الأغنية فعلا. لعابه يسيل على فمه، عيناه مليئتان بالدموع، يغني لحنا طفوليا لا يناسب صوته العدائي الحاقد وملامح وجهه الهستيرية: "يا حمدان يا حمدان، اطلع اطلع يا حمدان".

ينزل حمدان بالبندقية، يقترب من الباب، يفتحه، الدَّفَّة الخشبية تَصِرّ في الصمت، تقدم خطوة، يقف على الدرج المرتفع. اتَّضح جاسر بن مسعود أمامه. حدق إليه لحظة، ثم تعرّف عليه فأسقط في يده وفهم ما الذي حدث: "وجع!".

أما جاسر فتفاعل مع خروج حمدان كما يتفاعل مهاجم أحرز هدفا. فرح، وقفز في الهواء. يحدق بغضب أخرس والدمع لم ينشف بعد في عينيه، ويلمع أثره في خديه. وجهه مزيج من وجه طفل يبكي ووجه مجنون يريد أن يفترس ما أمامه.

ظهر فجأة من المنعطف البعيد شبح رجل يركض بسرعة، في نفس الوقت الذي تقدم فيه جاسر مقتربا من شرفة حمدان الذي شدد قبضته على بندقيته عند حافة فخذه، في وضعِ استعدادٍ متوثب. حدّق جاسر إليه بنظرة جزع، ثم قال ببطء حاد يتناغم مع وقع خطى الرجل الذي يقترب: "علمني يا حمدان ويا ويلك لو كذبت".

أطرق ثم دمدم: "أنا كنت ميت؟".

خرج صالح من البيت المقابل، في الوقت الذي وصل فيه الرجل، مسعود والد جاسر، وضع يده بنفس لاهث على كتف ابنه، فانتفض وهو يصرخ ويهدد: "لا تلمسني، وخر عني، لا أحد يلمسني". وتتكون حول حركة قدميه الحافيتين عثورة غبار طفيفة.

رفع حمدان بندقيته بغريزة خاطفة، فقال الوالد وهو يرفع يديه متوسلا، تلمع شعيرات حاجبه البيضاء في انعكاس الضوء: "نزلها، نزلها الله يلعنك!".

أنزل حمدان البندقية ببطء. وصل صالح وهو يقول "وش اللي صاير".

ولكن أحدا لم يجب. اقترب مسعود خطوة من ابنه، فتراجع خطوتان إلى الوراء وهو يحملق حوله بتوثب وشك. قال الأب: "إركد يا ولدي، أنت طيب، هاه؟ إركد بس. ما فيك شي".

ولكن الشاب انكمش وكأنه على وشك الهجوم، ثم سأل بهدوء من يستعد للانقضاض: "أنا بلحالي والا فيه غيري؟"

أطرق الجميع. حمدان يقبض بقوة على مقبض البندقية الخشبي. وصل سالم. وقف يراقب الموقف على بعد عدة خطوات. لا أحد يقول شيئا. صرخ جاسر من جديد والبصاق يخرج من فمه: "ردوا يا كلاب".

فقال حمدان دون أن يتحرك قيد شعرة: "فيه غيرك".

قال مسعود: "تعوذ من الشيطان، خلنا نرجع للبيت، بعلمك بكلش".

ضحك الشاب وهو ما زال منكمشا ويتحرك في مكانه مثل ملاكم: "أتعوذ من الشيطان؟! يمكن الشيطان هو اللي رجعني. يمكن انا الشيطان"، يضحك وعيناه تدمعان.

صالح يحدق ذاهلا. سالم يتطلع في جاسر بعداء محايد. حمدان يقبض على المقبض الخشبي. الجميع يترقب، بصمت. أشخاص يقتربون من بيوت عديدة، يتجمعون تدريجيا بتمتمة أصوات وأسئلة. جاسر يتلفت حوله وهو يلاحظ دائرة الناس التي تتشكل حوله، والغبرة تتصاعد حول قدميه الحافيتين، وتتكون حوله على شكل حريق. يرفع سبابته ويقول بإصرار زاد انعدامُ الصراخ فيه وحدةُ نبرته مصداقيته: "أبقولهم كلهم، أبقول لكل اللي برا الديرة، بقول لكل العالم يا كلاب. بذبحكم كلكم، واحد واحد، بمر عليكم كلكم وأذبحكم واحد واحد".

رفع حمدان بندقيته نصف المسافة فحسب، ولكنه توقف. انتكص جاسر على عقبيه وأخذ يركض، ولكن والده وصالح وأحد الجيران الآخرين انقضوا عليه، ثبتوه بقوة وهو يتخبط في الأرض ويصرخ بجنون، يصرخ صراخا مرعبا يخرج من أعماقه، وكأنه يتمزق، وكأن التجويف ظل ينحت روحه حتى وصل إلى قشرتها، ومسحها عن بكرة أبيها، إذ لا يبقى آنذاك في الإنسان إلا الجسد، الآلة، وتكاد ترى روح إنسان تموت، أمام ناظريك، وهو يصرخ كما لم يُسمع من قبل في القرية.

ظل حمدان واقفا فوق الدرج، متجمدا مثل التمثال، بُندقيته معلقة في نصف المسافة. التفت إلى الحشد، نقل بصره بين الواقفين، وانتبه لسالم الذي كان يحدق إليه. تطلعا في بعضهما بصمت. اقترب سالم والجماعة تتحرك إلى البقعة التي ثُبت فيها جاسر، وهو الآن صامت كليا. وقف أمامه ووضع يده على البندقية فأنزلها، ثم قال بنبرة تكاد تكون ساخرة: "تظن واحد طلع من القبر، بيرجع يموت إذا ثوّرت فيه؟"

أرخى حمدان قبضته على البندقية، مرر يده اليمنى على شعر رأسه، وأخرجها رطبة بعرق يطبخ في جسده كاملا، يتنمل في جلده.

وقفا بجانب بعضهما يحدقان إلى الشاب وهو يحمل هامد الحركة، كأنه جثة.

٥

صقعوب، صاحب الدكان الذي تستقر أمامه أخياش القهوة والبهارات وتتدلى منه أزهار الياسمين، يسير في طريق صحراوي وسط شمس الظهيرة. النافذة مفتوحة عن آخرها، وهدير المكينة والريح تملآن الصوت، وفي طرف فمه زقارة أكلت نصفها. يده اليمنى

على الدركسون، يده اليسرى يتكئ بها على حافة النافذة المفتوحة. في وجهه تكشيرة امتعاض طفيفة، وهو يحدق شاردا. الهدير قوي، يتداخل تدريجيا مع صوت صرصار الذي يأكل ما عداه حتى يستحوذ على الصوت، ويرتفع صريره خافتا مع حفيف أشجار وريح، وصقعوب يحدق شاردا. كان يقف بكسل خلف سور المقبرة في الليل، قبل أشهر. يعبث بعود خوص يقلبه بين يديه، يفتل شنبه الخفيف، يحدق أمامه بنعاس وملل. حتى سمع حركة داخل المقبرة، فأطل برأسه من فوق السور متلصصا، ورأى خمسة قبور يخرج منها خمسة أشخاص. حدق بذهول مصدوم، راقبهم يبقرون القبر، يخرجون متغطين بالتراب، ويمشون. تحرك نحو باب المقبرة دون وعي. مروا بجانبه، وكأنهم لا يحسون به، يلحقهم حمدان الذي تفاجأ بوجود صقعوب.

اقترب منه وصرَّ من بين أسنانه بغضب: "وش تسوي هنا؟!"

ولكن صقعوب ظل يتابع الأموات الذين يمشون، بفم مفتوح فاهٍ. التفت إلى الرقيب مشيرا بسبابته إليهم: "شفتهم؟"

اقترب حمدان حتى التصق به، غاضبا، وقد برزت منه عروق لم ترى منذ سنوات: "إن شفتك قلت لأحد انك كنت هنا، أو جبت الطاري لأحد، أبلعن شكلك".

صقعوب الذي كان في حالة مستمرة من الصدمة والذهول تلعثم ووجهه ملتصق بوجه حمدان، وقال بخوف مختلط المصادر: "أكيد أكيد، منب قايل شي".

ما زال صقعوب يحدق بشرود، وهو يجلس في محل وخلفه تخشيبات متروسة بالمعلبات. ويمكن رؤية التجويف الذي أحدث الوقت في روحه، يتجسد غريزةً مكبوتة مثل الصرخة التي خنقت، ولكن ما زالت تضرب في كل مكان بحثا عن منفذ تنبثق منه.

تتسلل إلى شروده الأصوات حوله، مكممة غامضة، ثم تتحدد حوافها أكثر، وتتضح تماما. أحدهما صوت شايب، يقول "بيجي شي أقوى من التلفون، يوصّل أبعد".

الآخر: "أبعد وين يعني؟"

"أبعد وبس"

"التلفون الحين يوصلك للي تبي".

"يوصلني للقمر؟"

"وش تبي بالقمر؟"

"وش دخلك أنت؟"

رد بسخرية: "أنت شكلك تحتري تلفون يوصّلك النار عشان تدق على ابوك".

قال الخمسيني: "الله يلعنك أنت ما تحشم أحد".

ولكن الآخر ضحك بسخرية مستمتعة، وسأل: "وأنت يا صقعوب وش تظن؟"

يجلس الرجلان وراء طاولة طولية مثل البار المنخفض، وخلفهما رجل آخر منشغل بكتابة شيء ما، وهو يجلس أمام طاولة صغيرة، ما يوحي أنه ليس معهما تماما. أحد الرجلين شايب في الستينات من عمره، والآخر أصغر عمرا، في الأربعينات تقريبا. يجلسون في محل دكان للجملة.

استطرد الأربعيني في سؤاله بابتسامة ساخرة تكاد تكون استهزاء: "تظن بيجي أقوى من التلفون اللي للحين ما جاكم؟".

تحرك صقعوب في مكانه، جمع سبابته وأصبعه الأوسط وهزهما وقد أحدّ عينيه: "هالهرج خرابيط. اللي صاير عندنا منحب فاضين لتلفون وغيره".

قال الشايب "ما هقيت والله. كل اللي عندكم غبار وتراب".

فرد صقعوب بعصبية: "أنت ما افتهمت. اقولك اللي صاير عندنا مهوب سهل"

رفع الرجل الذي يكتب رأسه، في الوقت الذي رد فيه الشايب بخمول: "طيب وشهو؟ شف حتى سعد" وأشار للرجل الذي يكتب "عطاك وجه".

سعد يتطلع إليه بكامل وجهه فعلا. استند صقعوب على الكرسي بارتياح من حقق انتصارا: "أنا وعدت أبو عبدالله إني ما أتكلم".

"منهو أبو عبدالله"

"ريّس الشرطة".

فقال الأربعيني "رابط خصاك بحبل أبو عبدالله ذا؟"

فاحتد صقعوب: "ما عندك سالفة أنت يا ولد. ما تدري وش اللي صاير. شيٍ ما يدخل مخ ولا عقل. شيٍ ما تشوفه إلا في القرآن".

ضحك الأربعيني: "القرآن؟! جاكم رسول يعني؟!".

"يا ولد أنت ما تفتهم".

فرد الشايب أخيرا: "لحول. ذا الورع عرف اننا عطيناه وجه وقام يخثرق".

وسعد يحدق في صقعوب بتمعن وتفحص، والقلم بين أصابعه ويده فوق الورق.

وجه سعد لطيف الملامح، بشارب ثقيل، وعينين واسعتين. يجلس في سيارته الآن، ويحدق أمامه في القرية المشرعة أمام عينيه، ببيوتها المتوزعة عشوائيا تحت شمس الظهيرة القوية والرمل المتعثور. يحملق بتمعن وتفحص.

نزل أخيرا. مشى في القرية. يتطلع حوله في المكان الذي تنبعث منه آثار التمهيد للقيلولة. المحلات مغلقة، البيوت نائمة. سار حتى وصل المسجد، فرأى النعال متكومة هناك، فوقف ينتظر، وصوت إمام يكبر ويسجد.

خرج الجماعة واحدا واحدا. يمرون به ويسلمون عليه بفضول فيرد السلام. حتى خرج حمدان، يسير بمشيته الخاصة. لحقه، حاول أن يبقى على بعد مسافة عنه، حتى دخل المركز. تبعه سعد إلى الداخل، يتطلع في المكان بفضول من يتلقف الآثار ويربط الدلائل، يسير بين مكاتبه فيرى سرور جالسا على كرسيه نائما يشخر في الحر، يجد المطبخ وعليه آثار القهوة والأباريق، يرى مكتب سالم الصغير، فيه طاولة خلفها تخشيبة ملفات ولا أحد يجلس هناك، حتى يجد أخيرا مكتب حمدان، يجلس الآن على كرسيه، يتصفح جريدة. وقف لحظة يتطلع فيه بصمت، بينما حمدان يتكئ بثقله على الكرسي ويفتح صفحتي الجريدة أمام وجهه.

حتى انتبه له، قال: "هلا".

فابتسم سعد بفضول وارتباك: "يا هلا بك".

اقترب من الطاولة، سلم على حمدان. جلس على الكرسي. لحظة صمت استغرابي بين الاثنين، وهما يتطلعان في بعضهما وسط الشمس. وكأن كلاهما يتوقع شيئا من الآخر.

قال حمدان بغرابة وكأنه لم يجد شيئا يقوله: "تبي أشغل لك المكيف؟ أنا عادي ترى مع الحر".

ضحك سعد بلباقة قادرة على امتصاص أي ارتباك في الموقف: "لا ما يحتاج".

لحظة صمت أخرى. قال حمدان: "سم آمر".

"ما يامر عليك عدو". تقدم سعد في جلسته، يحدق أمامه وكأنه يستذكر شيئا بعيدا. ثم قال بتلك اللباقة المبروزة بعينيه الجميلتين: "أنا بكون صريح معك، بعض الأشياء نسويها لأننا بس نبغى نسويها، ما فيه شي يخلينا نسويها، عارف؟ ما فيه سبب واضح وراها، يمكن لأننا محنا حيوانات كليا، مثل ما قال ابن خلدون نشبه الحيوان اللي لما يجوع ياكل لما ينعس ينام لما يخاف ينحاش، لكن عندنا أفكار ثانية، أشياء زايدة، تطري علينا وتخلينا نسوي حاجات ما لها سبب، تحس بها في جسمك، تخليك تتحرك من دون ما تختار". صمت لحظة ثم أكمل: "وأنا صغير، أبوي على فكرة من العقيلات، كنت دايم تجيني تصورات غريبة، يمكن لأني أحب أقرا، واللي يقرا دائما يستكشف أشياء غريبة في أي شي يصير، في أي شي يشوفه، يبدأ ينتبه حتى للي مهوب موجود، أو خل نقول للي ورى، عرفت؟ ورى اللي يصير. لذا أفسر الأشياء، وأستنبط منها. فمثلا مرة من المرات وصلنا خبر ان واحد من أخويا أبوي مات في قرية بعيدة في العراق، حتى إن ابوي راح وصلى عليه، ثم شفناه رجع لنا، خوي أبوي أقصد".

هنا يضحك سعد بخفة مرطبا شفتيه بلسانه، بينما يبدو على حمدان اهتمام قلق، وهو ما زال ممسكا بالجريدة في حجره.

يكمل سعد: "يبدو ان اللي مات ما كان هو، هذا هو التبرير المنطقي، صح؟ في يوم من الأيام، وفجأة كذا، وهو يمشي في الشارع طاح ومات. أنا كنت موجود في الشارع،

طريقة طيحته كانت غريبة، ما أعني طريقة موته، شفت ناس يموتون، لكني أقصد كن واحد طفّى الفيش فجأة والكهرب حق الرجال انطفى ومات كذا دفعة وحدة".

أطرق متطلعا إلى حمدان. المكان كله شمس. حمدان يحدق بجمود حاد. استنشق وزفر بهدوء مصطنع، حك خده ثم قال مبتسما: "يمكن سكتة، السكتة تسوي كذا".

فقال سعد وهو يهز رأسه: "صدقت. السكتة تسوي كذا والإنسان أصله آلة إذا فصلت سلكه يطفي على طول. لكن"، وصمت وهو يهز رأسه بابتسامة تواطئ غير مقتنعة.

لحظة صمت أخرى. سأل أخيرا: "هل تصدق انه قام من الموت؟ ترى تصير، الجاحظ سبق قال ان فيه ناس قاموا من الموت فجأة في مدينة في خراسان".

ظل حمدان على ابتسامته: "ما أعرف الجاحظ صراحة لكن واضح ان يبيله يتأكد من مصادره".

"لا هين، هو نصاب كبير. أنا أحبه لأنه نصاب كبير".

ثم أكمل: "يعني ما تظن هالشي يصير؟".

مط الرقيب ابتسامة أكثر مسايرا ثم قال: "يعني ظنتك أحد يقوم من الموت؟ ناقص بس تقول محد يموت هنا وان الجميع يعيشون مخلدين". وضحك بخفة.

بدت خيبة الأمل على وجه سعد، خيبة أمل غير مقتنعة. ولكنه حاول المقاومة: "خل أقولك وش اللي ..." إلا أن حمدان قاطعه: "من اللي لعب عليك؟". فرد سعد بنبرة دفاعية: "محد لعب علي والله!".

رفع حمدان يديه وكأنه يريد تجميع الكلمات التي سيقولها: "مشكلة الناس هنا ان حياتهم مملة، انهم ناس لما يروحون للمدن يحسون ان الحياة كلها هناك، فاهمني؟ فيكذبون. ما يقصدون شر، لكنهم يكذبون، ويكذبون بقناعة لدرجة انك تصدقهم، مهما كنت فاهم. بس هذي"، وهنا ضحك حمدان: "هذي شوي قوية".

بدا الخجل على وجه سعد المساير بابتسامته اللطيفة اللبقة، وترك الموضوع على حاله.

وقف عند سيارته، والقرية مشرعة أمامه، وإغراء ما يحدث في الخلف يجذبه. بدأ يمشي وهو يراقب، بالفضول المتشكك نفسه، والظهيرة قد أخلت الشوارع من الناس. يبحث عن الآثار ويربط الدلائل. ولكن كل شاخصٍ قد ابتلع سواده، ولا أثر للظل في الشمس المعمية. ويمكن فعلا لمبصرٍ أن يرى في مدى السطوع المزغلل كيف أن الضوء قد يكون أكثر إبهاما من الظلمة.

يلمحه صقعوب من بعيد، فيفزع ويبدأ في إدخال أغراضه ليقفل المحل.

وظل سعد يمشي، حتى وصل أخيرا إلى بيت ماجد، ورأى والده الشايب واقفا بنفس وقفته الجامدة المريبة، يتطلع في الفراغ. توقف سعد، حدق إليه فرفع والد ماجد رأسه، حملقا في بعضهما لحظة، وجه الشايب متخشب. كلاهما يغمض عينيه نصف إغماضة بفعل الشمس.

قال الشايب أخيرا: "امش يا ورع".

فمشى سعد ذاهلا. اتجه إلى سيارته، والقرية ببيوتها المشتتة وسط التراب المتطاير تحت الشمس تلوح خلفه. ركب سيارته ومضى.

٦

يقف حمدان في الزاوية متلصصا، ويراقب سعد يبتعد عن والد ماجد الواقف تحت الشمس ويعود إلى سيارته ويمضي.

يسير حمدان غاضبا في أزقة القرية، وعروقه التي لم ترى إلا في مشهد المقبرة خرجت من جديد. وصل إلى دكان صقعوب، فوجده مغلقا. تفحص المكان ودف الباب حتى كاد أن يكسره، ولكن لا أحد. همس وهو يتطلع في القرية: "وين يعيش ذا المنيوك؟".

اتجه إلى والد ماجد الواقف تحت الشمس، سأله "أبو ناصر، تعرف بيت صقعوب وينه؟".

يحدق إليه الشايب بجمود، لعدة لحظات، بينما ينتظر حمدان. يشير أخيرا بسبابته إلى بيت في الزاوية القصية شمالا. يهز حمدان رأسه ويمضي، ولكنه يتوقف فجأة، يلتفت إلى الشايب، يرفع رأسه للشمس الحارقة، ثم يعود ليتأمله بنظرة استنكارية. منظر الشايب – الذي اعتاد حمدان أن يراه واقفا في العصر أو المغرب – ملفت وهو يقف تحت الشمس "الجهنمية". ولكن الرقيب لا يقول شيئا، يتحرك ويخبّ إلى بيت صقعوب. السيارة ليست موجودة عند الباب. يصرّ من بين أسنانه: "الملعون بن الكلب". يتطلع حوله بتورط في الشمس المزغللة. ويعود بخطوات أبطأ إلى القسم.

من الصعب تحديد غور التجويف في روح حمدان. ربما لأن الزمن لم يكن خصما له أبدا، يتساوى زحفه وهرولته أمامه. لم تتغير ملامح وجهه، أو مشيته، أو سمته، ولا يحس بريح غامضة تجوبه مثل رياح الوديان العظيمة. ولكن الزمن وجد منفذا إليه عبر نومه، حينما يغفو، ويرى أحلاما تستنسخ الواقع، بكل حذافيره، فيقوم مثلا وهو واقف عند نافذة غرفته يرى ضوء سيارته الفورد ٦٦ متجهة إلى المقبرة، مثل علامة

في الظلمة. أو حينما يجد نفسه واقفا أمام فرن القسم، ينتظر الماء أن يغلي، ويكاد الوقت لبطئه وتمطيه أن يوهمه: هل يحلم؟ ويفكر أنه لا فرق، فالحلم درجة من درجات الواقع واليقظة أيضا.

يشرب الشاهي عند مكتبه، والمكيف يشغل المكان بهديره، ويكتفي بالتحديق أمامه، كما اعتاد دائما.

هل هذا حلم؟ ... وعموما، من يتساءل إن كان نائما، هو مستيقظٌ، بدرجة ما.

يتجه إلى المسجد مع أذان العصر، يصلي هناك، وتستهلك منه التحايا والسواليف العابرة عدة دقائق، قبل أن يخرج.

يتجول في القرية. تجره قدماه إلى بيت صقعوب، ولا يجد السيارة أمامه. ولكن عروقه تظل مختبئة عميقا وراء جلده، حياديٌّ إلى درجة أن مشيته لا تتغير.

مع غير حمدان، يقال إن الشخص هدأ، لأن الانفعال فعل متكرر طبيعي. ولكن معه، يقال إن انفعاله تلاشى، لأنه حالة طارئة ونادرة يجب أن تبرز في الجملة.

لقد تلاشى انفعاله، وبقي أثرا خاضعا للسيطرة، يقاد ولا يقود.

يصل أخيرا إلى المركز بعد ساعة، والسماء تغفو برأسها متريثةً نحو الغرب.

يجد سرور واقفا هناك فيسأله: "وين كنت؟"

يرد: "معليش أبو عبد الله، كنت منشغل مع الأهل".

لدى سرور أشغال كثيرة مع أهله، ولأن ماهية هذه الأشغال الغامضة المتكررة في قرية هادئة كهذه لم تحدد، فقد افترض الجميع أن نتوءاته لا تتوقف عند شنبه وكرشته

ومؤخرته، وأن نتوءً آخر يتكرر دائما لدرجة أنه يغيب ساعات في منزله، ويعود متوقدا حمرةً ونشاطا. ويفكر حمدان أنه سيتهور يوما فيسأله وليكن ما يكن: "كم مرّة تنيك الضعيّقة في اليوم؟". ويدفعه تخيل ذلك المشهد العجيب إلى أن يضحك، فيبتسم سرور بفضول متحمس ويسأله: "وش اللي يضحك يبو عبدالله".

ولكن حمدان يرد: "وين سالم؟"

"والله علمي علمك"

وقبل أن يدخل المركز، التفت وكأنه تذكر: "رح شف صقعوب إذا موجود في محله أو بيته".

"أبشر".

يجلس وراء مكتبه، يتصفح الجريدة التي يتضح على طرفيها أثر قبضته المتعرقة قبل ساعات. يطل سرور برأسه من الباب: "مهوب فيه صقعوب".

"طيب"

"تبي قهوة؟"

"بتقهوى معي؟"

"باخذ لي فنجال أو فنجالين".

فيلوح بيده: "جبها".

الشمس الآن قد هدأت في حمرة الأصيل، وكل شيء مجزأ بضوء ذهبي وفيء ظليل. يمسك فنجال القهوة خارج المركز، يتطلع في القرية، يشرب، والناس تتحرك شخوصا غامضة، مثل الكومبارس في خلفية مشهد. يتطلع فيهم بخمول. قطب حاجبيه، وكأنه انتبه إلى شيء تتصاعد أهمية إدراكه. علا ملامحه تعبير ذاهل. مضى يهرول تقريبا وهو ما زال ممسكا بالفنجال الفارغ، يقطع سكك القرية بين الكومبارس الذين يقفون ويسلمون ويتحركون، حتى وصل إلى بيت صالح، دق الباب فخرج، سأله حمدان مباشرة بتواطئ: "متى كانت آخر وفاة في الديرة؟!"

فكر قليلا ثم قال باستغراب: "من ستة أشهر على ما أظن"

حدق الاثنان إلى بعضهما. سأل حمدان: "ما أظن هالشي صار من قبل، والا؟!"

فرد صالح والتواطؤ يرتفع في نبرته: "لا. ستة أشهر مدة طويلة جدا".

يتراجع حمدان وهو يقول: "شوي وبجيك".

يتجه إلى بيته المقابل، يفتح الباب، وقبل أن يغلقه يسمع أصوات حشرجة بعيدة، فيقف عند الدفة الموارية التي ترسم فرجتها عامود ضوء أصفر على الأرض. أصوات الحشرجة تستمر. يقفل حمدان الباب ويتجه بخطوات بطيئة في العتمة الزرقاء. يصعد الدرج. ترتفع الحشرجة الاستفراغية، يصل إلى غرفة النوم المظلمة بستائرها المغلقة، يقف عند الباب محدقا إلى يساره في دورة المياه المضاءة على الطرف، ويقف بجمود، منصتا، والفكرة التي تتصاعد أهمية إدراكها تتضخم في عقله، حتي أنها تتمظهر ذهولا على ملامحه. الحمام مضاء، يلفظ ضوء يمتد إلى حمدان الذي ما زال يقف عند الباب.

ويظل واقفا، ينصت، ويحاول ترويض الفكرة التي يكبر تجسد ذهولها على وجهه.

يقول بما يشبه الهمس، كما تفعل حينما تخاطب وجودا واهنا، مثل شبح: "فاطمة؟".

فترد بصوت منهك غاضب ومتحشرج: "لو أموت أرحم لي. الله يلعن اللي أنا فيه".

ويحل صمت شبحي.

٧

"أنت من جدك تقول اللي تقوله؟"

يسأله صالح في مجلس بيته. حمدان يحدق إلى الأرض، وقد تمكن من ترويض ذهوله. هز رأسه بخفة وهمس: "مدري والله، مدري".

لحظة صمت. قال حمدان: "صعب تكون صدفة. ست شهور محد يموت، متى صارت ذي؟ هذا إما يكون شي استثنائي جدا، أو ان الناس فعلا ما عاد تموت هنا". وأطلق ابتسامة واسعة تعبر عن غرابة ما قاله للتو.

يدخل فجأة طفل صالح، يحمل صينية قهوة وتمر. يتابعه صالح باستغراب وهو يضع الصينية. يسأله: "أمك وشلون درت ان عندي ناس؟!"

فيرد: "ما درت. أنا اللي سويت القهوة".

يقف جامدا بلا حراك، وكأنه ينتظر طلبات أخرى من الاثنين، وحينما ظلا صامتين، لف وخرج. علق صالح بغضب تقريبا: "قسما بالله راسي يدور، وش اللي صاير".

لحظة صمت.

يقول صالح أخيرا وهو يصب القهوة: "لازم تكلم يحيى".

"من يحيى؟"

"فراش المسجد"

"وليه أكلم فراش المسجد؟"

"هو اللي يحفر القبور بعد. يمكن يصير عنده علم".

"ما اعرفه. كلمه أنت، بما إنك تعرفه"

فهز صالح رأسه باندفاع وهو يلوك تمرة: "لا لا، فكني، ذاك الرجال قلق. ما علي منه ولا عليه مني".

"قلق وشلون؟"

"قلق وبس".

"طيب وين بيته؟"

"مهوب ساكن هنا. تشوف مرابد الغنم اللي يمّ المقبرة من الجنوب؟ ساكن في واحد منها، ويجي كل صلاة مغرب للمسجد".

"ليه؟"

فيهز صالح كتفيه بحدة: "مدري. لا تسألني عنه".

في منتصف الليل بعد ساعتين من النوم، استيقظ حمدان على حركة فاطمة. جلس على السرير، وراقبها تخرج من الحمام وترمي بنفسها على كرسي أمامه، والنافذة المشرعة بينهما يدخل منها ضوء القمر الأبيض.

سألها: "تبين نروح للمستشفى في المدينة؟"

لا ترفع فاطمة رأسها، تبدو وكأنها نائمة. تهزه بخفة وترد: "لا. إن مت أبي أموت هنا".

ويراقبها حمدان بقية الليل، ولكنها لا تموت. وحينما أشرقت الشمس، كانت تغط في النوم، ويبدو الموت أبعد ما يمكن أن يحدث لها.

السماء في ذلك الصباح بديعة، لم يرى حمدان مثلها منذ زمن. غيومها حليبية تسحب الضوء من الشمس لتشكّل ألوانا تأسر العين. يتوقف حمدان بسيارته على حافة الطريق المرتفع. على يساره مبنى صغير من الطوب، عبارة عن غرفة صغيرة، قريبا من المقبرة، ومن خلفها ينبسط السهل مزيجا من الصحراء والمزارع. يقف هناك رجل في العشرينات من عمره تقريبا. يحيى. يلبس قميصا، له لحية خفيفة غير مهذبة، وفي مظهره رثاثة المنبوذين، مثل الزهاد الخارجين عن الدنيا أو قطّاع الطرق الخارجين عن المجتمع. يسير عدة خطوات، ويتبول. ثم يذهب إلى المقبرة. يتبعه حمدان وهو في سيارته على الطريق المرتفع فوق السهل، يراه وهو يبدأ بحفر قبور، ويلاحظ أنه قد حفر قبورا كثيرة. ومن الخلاء المشغول بأصوات الطبيعة البدائية، لا يُسمع صوت من صنع البشر إلا حِسُّ ارتطام المسحاة بالأرض.

أسرع حمدان بمغادرة المسجد فور انتهاء صلاة المغرب. الناس تخرج تباعا، وينتبه لرجل تبدو عليه وعثاء السفر من بينهم، لم يره من قبل. يخرج أخيرا الشيخ صالح، يقف بجانب حمدان، يسأله بنفس التواطئ المكتمل الآن: "كلمت يحيى؟".

ولكن حمدان شارد يلاحق الرجل بنظراته. سأله "هذا منا؟".

"لا. فيه ثلاثة غيره أول مرة أشوفهم".

يزفر حمدان بتورط. ويحمل في الفراغ ناقما.

يسأله صالح مجددا: "كلمته؟".

"لا". يطرق لحظة، ثم يضيف: "لقيته حافر قبور واجد!".

"ليه؟!".

"مدري". ويضيف حمدان بسخرية تقريبا: "سامع عن شي والا كيف".

يصر صالح بحدة وكأنه يخاطب نفسه: "أنا ما لي دخل في هالرجال ولا له دخل فيني".

يستدرك حمدان: "توقعته كبير في السن".

"لا. أتوقع في آخر العشرينات".

"ليش واحد في العشرينات يحفر قبور؟".

"مدري".

"من أهله؟".

"مدري".

"وش اسمك؟".

"مدري".

ويضحك حمدان بينما يكشر صالح مستدركا بما لا يكفي من السرعة: "ظريف الأخ. رح بس شف شغلك وحل الموضوع"، ومشى صالح.

خرج يحيى بعد دقائق من المسجد، واتجه إلى الفناء الخلفي. لحقه حمدان، رآه جالسا على الدكة متربعا وبجانبه دلة قهوة وصحن فيه تمر. سار بخطوات متمشية وقد وضع يديه في جيبه. رفع يحيى رأسه ورآه، لم يبدو عليه الاستغراب، يتطلع بألفة من رأى شخصا اعتياديا.

"حياك يبو عبدالله".

"هلا يحيى".

جلس حمدان بجانبه. صب يحيى فنجالي قهوة، وقرب التمر عند الرقيب، وأكل واحدة. حمدان يتطلع في الفراغ أمامه، وهو يشرب فنجاله، وقد فرد ذراعه اليسرى على حافة الدكة.

ملأ يحيى الفنجالين من جديد، مد لحمدان التمر فامتنع بحركة من يده.

في الخلفية أصوات القرية، أشخاص يتحدثون من مكان بعيد، صوت أقدام تمشي، صوت قط يموء.

سأله حمدان: "كم لك هنا يا"، وفكر أنه يجب أن يناديه بكنيته، كي يعزز تواطأً بينهما، فاستفسر: "وش اسم الولد؟"

ولكن يحيى التفت باستغراب: "الولد؟".

"ولدك؟"

فهز كتفيه: "ما عندي عيال"، وأردف بنفس درجة الألفة: "مثلك".

"متزوج؟"

"لا".

"ليه؟".

يلوك تمرة، يتمطق ويرد بتلقائية: "ما جت فرصة".

يتذكر حمدان بداية السؤال، فيعود إلى الموضوع: "طيب اسم الوالد؟".

"ليه؟".

فيختصر النقاش: "أناديك أبو من؟".

"نادني يحيى. اسمي اللي الله عطاني إياه".

ويسأل حمدان بابتسامة: "الله هو اللي عطاك اسمك؟".

"الله خلق اللي عطاني اسمي، لذا الله اللي عطاني إياه".

ضحك حمدان وهو يتذكر جبال الصريم عند المخرج الشرقي، وتخيل الشاب مثل رياح التعري التي تنحت الصخر، فبدا له بمنظره الذي يذكر برثاثة الزهاد وقطاع الطرق مناسبا لهذه الصورة، الريح الأقّاقة اللاممسوكة التي تجوب الوديان العظيمة وتنحت الجبال.

"طيب. يحيى. كم لك هنا؟"

ملأ فنجاله وفنجال الرقيب. "ويييين. من زمان".

رد متفاجئا من أنه لم يره هنا من قبل: "من كم؟"

"من قبل ما أقدر أتذكر".

واستدرك حمدان في نفسه مبررا أنه لا يعرف نصف القرية، ولا يحفظ الوجوه، ولذا ربما لم يره من قبل. وسأله: "مولود هنا يعني".

"يمكن".

"شلون يمكن".

"مدري. إذا أنا هنا قبل ما أتذكر وشلون أعرف اني مولود هنا والا لا".

"أمك وأبوك؟".

"متوفين".

"متى؟"

فابتسم: "من قبل ما أتذكر. والا كان علموني".

كل شيء في المكان يحض على التصديق بحقيقته، ولكن حمدان يفكر في احتمالية إن كان يحلم، ويطرق برهة ليلاحظ الخمول الثقيل، والوقت المتمطي البطيء. ويستعيد بنفس القوة إدراك أن كل الأحلام درجة من درجات الواقع واليقظة.

قال علي أخيرا وهو يشرب: "توصلني سوالف أشياء غريبة هنا".

انتبه حمدان، رد مبتسما: "ما يندرى وشهو الغريب واللي عكسه".

لحظة صمت، يثبت ثقلها المترقب – الذي تفتقر له الأحلام بخفتها الماورائية – حقيقة ما يحدث. التفت حمدان بشكل كامل تجاه يحيى، هم بالكلام، ولكنه قاطعه بألفة أعمق وتواطئ مشكوك في مصداقيته: "تدري من آخر واحد توفى هنا؟"

رد بحذر: "لا"

"ظافر".

فكر حمدان لحظة ثم قال: "ما أعرفه".

بدا يحيى متفاجئا بعدائية تقريبا: "ما قد شفته؟!"

"لا. ما شفته".

تراجع يحيى سريعا إلى الألفة المتبسطة التي تبدو متسامحة مع فداحة ما حصل، تكتسب عمقا أكبر مع منظر فتوته المستهلكة ورثاثة الزهاد وقطاع الطرق: "ما هو مثل غيره، عارف؟ دايم يتبوسم مثل بزر، لكن إذا سولفت معه وجلس يناظر فيك تحس انه ... **يخوّف**. هه؟ ما هو يخوف بمعنى انه يخوف، ولكن يخوف انه .. فيه شيٍّ ما تدري وشّو".

ظافر؟ ظافر؟ نعم ظافر. بشعره الناعم المبعثر الذي يتدلى عرفُه إلى عظمة وجنته. بلحيته الخفيفة. بكتفيه العريضين اللذين يمسكان جسدا صغيرا ونحيلا. بوجهه الطفولي الرقيق وعينيه الواسعتين الموحيتين، وهو يحدق أمامه، إليك مباشرة. تخيل وجهه. وصوت يحيى فوقه: "عيونه، عيونه تحس انه يشوف شي ما تشوفه أنت، يشوف شي فيك أنت، شي ما تعرفه: وش انت، وش تصير، وشلون عشت حياتك، وشلون بتعيش حياتك...". يقف ظافر وهو يحدق إلى المقبرة، بنظرة متأثرة بهيجة، ينفرج فمه انبهارا،

وتومض في عينيه لمعة البحيرات الصافية في دمعتين كبيرتين تتعلقان في رمشيه، وهو يحدق إلى القبور. وصوت يحيى: "وشلون بتموت!". الوقت في رمق الغروب، والزرقة الباهتة لونٌ كثيف متموج في الكون. يسير ظافر مشدوها، في درجة من درجات اليقظة، يمر بين القبور، يتطلع في الشواهد التي تلمع، يجثو عند أحدها ملصقا أذنه في الحصباء، وكأنه يسمع ما يحدث في الداخل. لم يكن هنالك قبور مبقورة بعد، ولم يكن هنالك قبور محفورة أيضا، عدا قبر واحد. وقف عنده. جثا أمامه. الحفرة عميقة. نزل فيها، تطلع في الشق أسفل القبر، محفور على قدر الجسد الإنساني. حدق إليها، معتمة في الزرقة اللونية المتموجة. دخل واستلقى فيها، محفورةٌ تماما على قدر جسده، ليس بينه وبين سقف الشق إلا عرض أصبع. يظل مستلقيا، وفي طرف فمه تتوسع ابتسامة لا تكاد ترى، وعيناه معلقتان في السقف الترابي. أصوات الغروب، العصافير والهواء في الأغصان وحشرات الليل. لا يتحرك، الظلام يتزايد، يمسح الزرقة، ويبقى هو في الشق كتلة باهتة، ويحل مكان كل صوت وسوسة متصاعدة، هسيس كلام مشفر متشابك يترسخ مع العتمة، ثم تدجن العين تماما، ويختفي ظافر الشق، متحدا مع السواد الذي ابتلع كل شيء، عدا الوسوسة الخافتة اللامعرفة.

في الوجه يكمن نصف الحقيقة.

وجه حمدان في الظلمة، وهو يمشي مضطربا في زقاق معتم يضيئه ضوء القمر. وجهه المحتقن بملامح ذهول ودهشة زائغة، متعرقا يتنفس بقوة، وهو يمشي. يركب سيارته، يده اليمنى على الدركسون ولكن يده اليسرى في حجره، غير مشرعة في الهواء. يقطع الطريق الخاوي المترّس بالنخيل حتى يصل إلى المقبرة. ينزل وسط الظلمة وأصواتِ الشجر وصرصار الليل، يمر بين القبور الكثيرة المحفورة الفارغة، حتى يقف عند أول قبر تلمه الأموات، القبر الذي استلقى فيه ظافر، قبر "المار من

الديرة" الذي اختفى فور خروجه، يقف عنده ويحدق إليه بنظرة زائغة، في وسطه حفرة أحدثها انبثاق جسد إنساني.

وجه يحيى، بمظهر المنبوذ، وهو يكمل: "١٠ شهور جلسها هنا، كل صلاة يجي، ويجلس في زاوية المسجد، يناظر، يناظركم كلكم"، ويختم بفخر: "ولا أحد انتبه له، إلا أنا. أنا بس اللي انتبهت له".

يطرق يحيى، ربما ليترك كلامه يعقد حبلا حول رقبة حمدان، الذي تُجسد ملامحه هيئة شخص يختنق ببطء. ويكمل باستمتاعِ من يدرك تأثير قبضته: "لما غسلته كنت أشك انه حي، كان في طرف أثمه مثل الضحكة، يتهيّا لي انها تروح وتجي. عيونه مغمضة لكن كني أشوفها ترمش".

قال حمدان وشحوب وجهه وحشرجة صوته تفضحان استحكام الحبل على رقبته: "بس منهو؟"

هز يحيى كتفيه بهدوء خامل وكأنه يخبر حقيقة بديهية لا تثير استغرابا: "عابر سبيل".

جسد حمدان يكافح، فتزفر الرئتان نفسا دفاعيا ينطلق في قصبته إلى حنجرته التي تضخه عنيفا فترخي استحكام الحبل على رقبته، ويتشعب النفس في رأسه وينتشر الدم في وجهه. ويقول بثبات أكبر: "متى جا ومتى مات طيب؟".

"محرم، العام".

فكر حمدان وهمس "يعني سنة وأربع شهور".

"إيه. ومات قبل ست شهور".

"ست شهور؟!"

خيم صمت ثقيل. ثم تحرك يحيى في مكانه مبتسما، مد يده إلى فنجاله بارتياح، وكأن حملا قد سقط عن ظهره.

٩

حمدان يجلس في البيت، متهالكا على الجلسة، يحدق بوجوم خامل أمامه.

تسأله فاطمة: "ما طلعت اليوم كله. وش فيك؟"

يتنفس بخمول. يقول وكأنه ناعس: "ما فيني شي. مابي نفس".

ينتبه، يلتفت نصف التفاتة. زوجته تلبس عباءتها. لقد ارتد اللون إلى وجهها تدريجيا، وصارت وقفتها أكثر ثباتا. يسألها "وش تسوين؟"

"بروح أجيب خلطتي من مرزوق".

يسحب جسده ويقول: "خليني أروح أجيبها". ويقاطعها قبل أن تعترض: "خليني أطلع أشوف".

حينما خرج حمدان بقميصه البيتي المقلم، كان الكثيرون يقفون في الخارج، ولكن مشتتون، وكأنهم يترقبون حدوث شيء ما، إلا أن خوفا يمنعهم من أن يفاتح أي منهم الآخر. الوقت آخر العصر، وفي السماء أشتات غيوم. الجميع يبدو وكأنهم ينتظرون حمدان، يترقبونه، يتوقفون في أماكنهم وهو يمر بينهم، ويتبعونه، ولكن الخوف أيضا يمنعهم من مجرد السؤال المباشر. يبدو منتبها لذلك بطرف عينه، ولكنه لا يلتفت.

يظل يمشي بمشيته المتئدة المتراخية، والريح تنفخ قميصه. حتى يقف عند دكان العطارة: "مرزوق، عطني الخلطة حقت الأهل".

البائع يبدو مرتبكا، يهز رأسه بطواعية، ونظراته تتقافز إلى ما وراء كتفي الرقيب. حمدان يقف بجمود، بنظرته الحيادية التي لا يمكن تصنيف ماهيتها بدقة، وكأنها الحالة الأساسية للوجه الإنساني المجرد من المشاعر والاعتبارات، وكأنها النظرة المتوقعة في وجه الميت. يحس بالآخرين خلفه، تخزُّ نظراتهم رقبته. يتجمعون حوله ولكن بمساحة تفصلهم عنه، وكأنهم ما زالوا يهابون شيئا ما. يتقدم أخيرا منه أبو راضي. يقف بجانبه عند طاولة العطارة، مرتبكا، وكأنه يريد شراء شيء. يسترق النظرات نحو حمدان الواقف بجمود مفتعل. يقول أخيرا: "أبو عبد الله".

يهمس حمدان دون أن يلتفت "هلا بك".

"وش أخبارك؟".

فيرد مقتضبا: "بخير".

لحظة صمت، يقلب المسن بين يديه شيئا، وكأنه يفحصه. ثم يقول: "أجل صح اللي نسمعه؟"

فيرد حمدان: "إيه صح".

أبو راضي مذهول، يلتفت للآخرين خلفه، ويعود محملقا في الرقيب. يهمس: "يعني صدق ما فيه موت؟"

"الظاهر".

يقطب المسن التسعيني حاجبيه الكثيفين: "يعني إلى متى؟"

فيهز حمدان كتفيه ويقول "مدري، علمي علمك".

مرزوق يقف ممسكا الكيسة، مشدوها. يصفر الرقيب له ويمد يده، فيمد البائع الكيسة. يأخذها حمدان وهو يقول: "أعطيك بعدين الفلوس ما معي الحين".

ثم يستدير، والناس تتطلع إليه، ينتصبون شخوصا ثابتة، مثل لوحة، في حالة ذهول وصمت جماديّ السمة.

يقف حمدان لحظة عند الزاوية، حيث يلوح مركز الشرطة في الامتداد على يمينه. يغير اتجاهه ويتجه إليه، ممسكا بالكيسة. الريح تنفخ قميصه، والناس تلاحقه بنظراتهم دون أن يتبعه أحد.

يدخل فيرى سرور واقفا عند المطبخ، يتطلع نحوه بقلق، وكأنه يريد أن يقول شيئا ولكن جرأته لا تتميز بالنتوء مثل بقية جسده، فيظل صامتا.

يتجه حمدان إلى مكتبه، فارغ يطفح بضوء العصر الأصفر. يبدو مهجورا تغطيه غلالة غبار طفيفة.

يتجه إلى مكتب سالم، يقف عند الباب. سالم يجلس متكئا بمرفقيه على الطاولة وقد فرد ساعديه عليها، بخمول، وكأنه على هذه الحالة منذ زمن. يرفع رأسه نحو حمدان. يحدقان لحظة إلى بعضهما. سالم يبدو منهكا، ومستنزفا، قال بخمول: "اللي صاير ما يصح".

فيبتسم حمدان: "ما يصح والا غير معقول والا لا يمكن. اجزم على وحدة".

فيصر سالم: "كلها".

فيهز حمدان كتفيه لامباليا: "تبي تموت يعني؟"

"لا. لكنه هو المفروض"

لحظة صمت بطيئة. يحدقان إلى بعضهما، ولكن حمدان يظل صامتا. بنفس تلك النظرة الحيادية.

قال سالم: "مستحيل تقدر تكتّم على الموضوع، حتى اللي يقولون انهم بيتكتمون على الموضوع هم أول من بيتصلون على أقاربهم وأخوياهم ويقولون تعالوا للمكان اللي يقوم فيه الميت ولا يموت فيه الحي. ما تقدر توزي شي بهالضخامة".

هز حمدان رأسه. حدق إليه. ثم استدار ومضى بكيسته وقميصه البيتي المقلم. تابعه سالم يختفي وعاد ليحدق في الطاولة، بنفس اتكائه الخامل.

ينهض بعد لحظات ببطء. يسير متنقلا بتثاقل في المبنى الذي أخفى شتات الغيم الضوء الأصفر منه. يمر على سرور، ويتحدثان عن القهوة الجديدة التي اشتراها. يطل برأسه في مكتب الأرشيف، ويغلق النافذة. يخرج من الباب، يتطلع في القرية. الحركة هادئة، وحركة الناس مسكونة بالهواجس. الصحراء خلف مركز الشرطة غرب القرية عذرية تمتد متشابهة إلى مدى البصر بلا طرق أو علامات، تنبسط في سهوب ترابية وتلال صغيرة، وتغرق في ضوء الغروب الذي يحترق في الأفق ويجعل كل شيء في ذلك الامتداد يبدو ظليا. مزيج من الضوء والعتمة، يمكّنك من رؤية كل شيء دون إبهام السواد أو السطوع. يرى قماشا مثل وشاح عالقا بين أحراش صحراوية أمامه، يتقدم بمشيته المتئدة. الوشاح يهف مع الريح الخفيفة، وكأنه يحاول الفكاك. يقترب منه

أكثر، ولكن الوشاح ينفك، يطير بخفة متموجا في الهواء، يراقبه سالم، وجانب وجهه الأيمن يلمع بلطخة ضوء، وفي الجانب المغشى عن يساره يمكن رؤية سيارة، تسحب التركيز على الوشاح الذي يواصل الابتعاد مع الريح. يحدق سالم إلى السيارة بجمود وشك، تقطع الصحراء، تعثور غبارا يصعد ثم يهبط، تصنع لنفسها طريقا وتلُوح علامة في القفر العذري، حتى تصل بعد لحظات عند حافة القرية الغربية. تبرز ظلا في الغروب، والشخوص الثلاثة الذين فيها يبرزون ظلا أيضا، لا يمكن استكشاف ملامحهم بدقة. ينزل الذي يسوق، يتضح من جسمه أنه رجل، ثم ينزل الآخران، فتى وطفلة صغيرة بجدائل. يحدق سالم إلى المنظر بحزن غامض يتصاعد في داخله. الرجل يفتح حوض السيارة، ويُنزل مع الفتى جثة ملفوفة في كفن، ثم ينزل أخرى. كلهم ظليون في انعكاس الغروب خلفهم. يتصاعد الحزن في روح سالم، تلمع عيناه مثل البحيرات الصافية العظيمة، دون أن تنحت دمعتان أثر نهر في خده، تظلان معلقتان في رمشيه. يطأطئ رأسه، ينكث الأرض بطرف جزمته، ويستدير عائدا إلى المركز. يقترب الثلاثة من مدخل القرية، ويمكن رؤية الرجل، هو نفسه الذي كان خارج المسجد يحمل وعثاء السفر على جسده. أنزلوا خيمة صغيرة وأوتادا، بينما الجثتان تستقران بجانب السيارة في كفنهما الأبيض.

١٠

ولكن كل العوالم الجديدة، كل النشوء الجديد، يتشكل على أجداث ما سبق، ويجدد ما اقتُرف. إلا أن الناس بدأوا يرون لأمواتهم حق الولادة، وكأنهم خلق مختلف لا علاقة

له بالماضي. وكأنهم يولدون. ولكن لا شيء يولد، حتى المولود، يخرج بجينات أمه وأبيه وطفرات تطوره.

كل خلق يخرج محملا بثقل ما اقتُرف.

ولأن الزمن، مثل المحسوسات والجمادات، يتأثر بالسياق الذي يحتويه، فقد انطلق ليعوّض كل بطئه. ما زال يجرّ أحمال الترقب والعجز والحيرة الثقيلة، ولكن عجلاته السريعة تنحت أرواح الناس على السطح، مثل رياح التعرية في الجبال العظيمة، تضربهم دائما وتترك أثرها فيهم، ويفتقد الإنسان فضيلة الوديان العظيمة المفرغة في أرواحهم التي تمنحهم فرصة إشغال رياح الهواجس المتريثة في مواجهة ما يحدث، ويصير مجرد الخروج من المنزل لارتياد محل مرزوق فعلا محفوفا بالغرائب.

يمشي سالم ليلا، وهنالك أصوات تشبه الصراخ والتكبير والهمس. يهرول حتى يصل إلى الشارع المؤدي إلى مدخل القرية، حيث هنالك ست خيام مركوزة، وثلاثة أشخاص يقفون عارين في الضوء الأصفر، بينما يتحلق حولهم الآخرون برعب. ثم ينسحب المبعوثون إلى خارج الضوء، وأهاليهم يلحقون بهم.

يقف سالم بعيدا بقميصه. ينتبه له شاب، يركض نحوه وهو يشير إلى الأموات الثلاثة غاضبا، ويقول كمن يتكئ على جدال سابق دُحض بهذه الواقعة: "شفت؟! قاموا!".

يرد سالم بعصبية مرهقة: "قلت لك، اللي مات قبل سنة وخمس شهور ما راح يقوم. هذا أبوك مات قبل شهرين وقام. ما تشوف مقبرتنا مليانة ناس ما قاموا".

يرد الشاب بنفس نبرة الغضب المنتصرة: "لكن أمي يمكنها حية، لازم أطلعها".

يلكمه سالم، يسقط الشاب ويقفز زائغا، يتطلع فيه بتوثب متخوف. يقترب سالم منه ويمسك تلابيبه بيديه الاثنتين ويصر من بين أسنانه: "أمك فاطسة من أربع سنين لذا مهيب قايمة لو حطيتها هنا قرن. أشوفك مطلعها أقسم بالله العظيم اني لأجرك أنت واياها برى إلى أبعد مكان في الأرض ثم أحفر ألين أوصل لقاعها وأدفنك هناك عشان لو تحفر سنة ما تطلع. فاهم والا لا؟"

هز الشاب رأسه بنظرة وحشية يكبحها خوف جامح. وحينما أطلقه سالم مضى يجر قدميه إلى حيث الجمع.

كل لحظة، وكل طَلعة، وكل إطلالة رأس من الباب، بل وكل خلوة متعمدة؛ مؤهلة لتكون فعلا محفوفا بالغرائب، ريحا عاتية تنقّب أرواحهم.

سيارة تتوقف في الصباح الباكر عند بيت نافع الكبير. يقف على العتبة بتوتر، يرمي كل لحظة نظرة عن اليمين وعن الشمال، ليتأكد من أنّ لا أحد – ممن يبالي بهم – يراقبه. يترجل من السيارة ثلاثة اشخاص، يسلمون عليه، ويُنزلون ثلاث جثث يدخلون بها سريعا إلى البيت.

صالح وهو يجلس متوجسا في خلوة مكتبته، وضوء لمبة صفراء شاحبة يضيء المكان. يسمع جلبة وأصواتا وهمهمات. يحدق إلى الباب ودرجة توجسه ترتفع لتكون رعبا. الباب يفتح أخيرا، وتبرز منه زوجته التي تقول: "تعال، أبوي قام".

حركة الصباح الباكر في الخيام التي زادت عن ٤٠ خيمة عند مدخل القرية. أناس يتحركون في طقوس اليقظة الرتيبة، بينما تلوح هناك في الوراء صفوف أموات، تستقر طولية بالأكفان البيضاء التي تسجيهم.

حمدان واقفا عند نافذة غرفته في الظلام، يحدق إلى الخارج بنظرة متحجرة، يرى من بعيد أضواء الخيام الكثيرة، حيث هنالك فتاة تصرخ بكلام غير مفهوم، تضطرب في مكانها، بينما يتحلق حولها جماعة. ويحس بقبضة يده تتكمش، وكأنه يمسك بندقيته.

فتيات يمشين متمهلات في الطرقات، وقد كمشن عباءاتهن لتتضغط على أردافهن، ومن نقابهن تبرز أعينهن الكحيلة.

حركة القرية في الضحى، وقد امتلأت شوارعها. أناس يتسكعون في الطرقات، أكثرهم يبدو رثا، مستنزفا. مجهولون، يحاول بعضهم التبسط مع أهل القرية، وآخرون يتصرفون على أن هذا المكان حق للجميع.

عائلة مكونة من خمسة رجال يحاولون بناء بيت طيني، خارج القرية.

رجل يفاوض آخر على شراء بيته: "باللي تبي. كم تبي؟"، فيهز ساكن القرية كتفيه مستهترا ويقول شاطحا: "خمسين ألف"، إلا أنه يفاجأ بالرجل يرد: "تم. ما عندي مشكلة. أعطيك إياها الحين".

أشخاص يجادلون صقعوب في محله، يطلبون منه أن يزيل المجلات التي يبيعها هناك، لوجود صور مخلة فيها بحسب تعبيرهم. يتشاجر في دكانه مع أحدهم، ويهم بالاعتداء عليه قبل أن يتدخل حمدان ويدفع الشاب مهددا، ليبادر الآخرون بإمساكه وتهدئته وإقناعه بألا يصعّد الأمر مع رقيب الشرطة. بينما تتصاعد نظرات عداء متبادل بين أفراد القرية والغرباء.

يحيى وهو يتنقل بين الناس، يحكي لهم عن ظافر، ويصفه لهم، والأعين الموقنة والمتشككة على حد سواء معلقة به.

سرور عند باب القسم، وهو يهتف: "أبو عبد الله تعال بسرعة". يخرج حمدان ويقف بجانبه. هنالك سيارة كبيرة تقترب في البعد، تمر بجانب الخيام التي تجاوزت ١٠٠ خيمة، وحينما تتوقف عند المركز يقرؤ حمدان المطبوع على جنبها: "أمارة المنطقة الوسطى"، وينزل منها خمسة أشخاص.

ريح تعرٍّ عاتية تنقّب أرواحهم.

ثم سالم أخيرا. يخرج عصرا من المركز. من خلفه عساكر ورجال بلباس رسمي، تكدس بهم المركز وصادروه تقريبا. يخطو بمشيته التي صار يعرف بها في مدخل القرية المكتظ. المكتظ عن آخره، وكأنه حج. مئات من الغرباء يحدوهم الرجاء والطمع في حياة جديدة.

يرفع رأسه فيرى شكل جسد فوق مئذنة المسجد، اقترب منها فتبين أنه حمدان. يقف متكئا على السور القصير، يستشرف المدى المفتوح تحته، والهواء يحرك شعر رأسه.

ذهب سالم إلى المسجد، صعد المئذنة الكبيرة التي تنتهي إلى سطح مستدير مثل قرص واسع، اقترب من حمدان الذي انتبه لصوت دخوله فالتفت سريعا، ثم عاد يتكئ على الحاجز الاسمنتي القصير، وكأنه يعدّ.

وقف سالم بجانبه عدة لحظات، ثم سأله: "وش تسوي؟"

المنظر المرتفع على قرابة ٨ أمتار يكشف الخيام الكثيرة التي تكاد تنبسط في رقعة تماثل مساحة نصف القرية، بألوان مرقعة ومشتتة.

قال حمدان: "يبون أعطيهم آخر عدد للخيام. وكل ما عديتها أخطيت. قلت ارقى أعدهن من فوق".

حدق سالم إلى حمدان. قال بابتسامة: "هذي تاليتها. تعد خيام!".

توقف حمدان عن العد، وهو يبتسم. التفت نصف التفاتة إلى سالم وقال: "الموضوع انتهى خلاص. فشلت المقاومة".

ولكن سالم لم يرد. يرمقه بهدوء، ودون عداء.

ما زال حمدان يتكئ على الحاجز الاسمنتي ويستطرد: "وبعدين وش اللي مزعلك؟ على الأقل أنت تقدر تعيش في هالعالم".

رد سالم: "أي عالم؟!"

ولكن حمدان عاد يحدق إلى الأسفل، ثم بدأ يعدّ. وحينما انتهى أعلن: "١٩٨ خيمة".

"في أسبوعين؟!"

"مستكثرها؟ توّنا". سحب جسده من اتكائه. سار نحو درج المئذنة بمشيته المتئدة الشهيرة. راقبه سالم وهو يختفي في الدرج. ثم عاد ليراقب الزاوية البانورامية للخيام تحت شمس العصر، مرقعة ومتلاصقة وفوقها منظر الغروب الذهبي.

يسمع صوتا، يلتفت، يرى لطيفة وقد أشاحت شيلتها عن وجهها وكمشت عباءتها عن قميصها الأزرق، تقف عند باب الدرج. يتطلعان في بعضهما بصمت. هنالك نظرة حيادية فريدة تتشكل في وجه سالم، لا يمكن تصنيف ماهيتها بدقة، وكأنها الحالة الأساسية للوجه الإنساني المجرد من المشاعر والاعتبارات، وكأنها النظرة المتوقعة في وجه الميت. الفتاة تحدق بنظرة انجذابها الجريء الهادئ، وفي طرف فمها ابتسامة تتسع مع مرور الوقت وترسيخ وجودها فوق المئذنة. عدة لحظات تمر، نسمع أصوات الناس تحت، بعيدة ومكممة. تخلع عباءتها ليبدو قميصها الكامل عن جسدها المنحوت

داخله، مثل القفاز، وتشيح شيلتها لينتثر شعرها على وجهها. يتطلع سالم إليها، وقد وضع يديه في جيبه. تقترب منه ببطء، تلتصق به تقريبا. يسألها بهمس: "وش شفتِ هناك؟"

تبتسم بخيبة أمل: "ولا شي".

"وش كان فيه؟".

"ولا شي".

"شفتي أخوي منصور؟".

على وجهها تعبير متعاطف أمومي، تمسّد شعر صدغه بيدها، أنفه ملتصق تقريبا بأنفها. تقول له بحنان: "لا".

ولأنها خطيئة، حتى لو جاءته بالحلال، فإن سالم يرى في عينيها كل الأماكن التي لم يزرها، وكل الأطعمة التي لم يأكلها، وكل اللذات التي لم يجربها. وتتسرب في روحه، أعمق من أي ريح. ويتجسد في عينيها انعكاسه، الرجل الذي لن يكونه أبدا ما دام هنا، أو ما دامت القرية على حالها.

يتكئان على الحاجز الاسمنتي. ترخي رأسها على كتفه، بينما يدخن هو. متكئان بصمت. أصوات الناس والحركة مسموعة، وألوان الغروب تضفي على المكان صبغة زرقاء شفيفة.

الموت

١

يستلقي سالم على فراشه، تحت النافذة المفتوحة فوق رأسه. ضوء الفجر الأزرق يلوّن الغرفة، شفيفا وحميميا.

يدخن ويقطف في مدخنة بجانبه.

يظل مستلقيا وهو يحدق إلى السقف بنعاس. وتمر عدة لحظات على هذه الحالة، والدخان يتحرك ضبابا في الهواء. ويفكر إن كان نائما، إن كان ما يحدث الآن، يحدث فعلا. لقد صارت أحلامه قريبة من الواقع جدا، ولكن ربما لأن الواقع نفسه اقترب من الحلم. ولذا لا يأخذ الأمر بكثير من الجدية، فالواقع درجة من درجات الحلم، ومن يتساءل إن كان مستيقظا، هو يحلم، بدرجة ما.

يسمع أصواتا بعيدة جدا. أصوات غير واضحة، ولكنها قد تُسمع كصراخ. إلا أنها مبهمة لدرجة أنها تعمل خلفية لنعاسه. ولكنها ارتفعت إلى درجة أنها سحبت جفنيه وأرعشت أذنيه.

يجلس على فراشه، يرفع رأسه، يصخي السمع أكثر وهو يحدق إلى النافذة الزرقاء فوقه، وقد خططت ألوانَها حوله. ولكن الأصوات يستحيل الجزم بماهيتها، إلا أن فيها جلبة مقلقة.

ثم فجأة، مثل حد السيف، يسمع صراخ والدته. يفز من الفراش. يخرج سريعا بملابسه الداخلية. ينزل من الدرج فيرى والده على الأرض أمام الدرج، ووالدته تصرخ فيه: "تعال أسرع شف أبوك".

يجثو فوقه، كان شاخص البصر.

ظل منشغلا بتأمل ورطته، بينما تترسخ الأصوات من الخارج جليّة وواضحة، منبئة عن كارثة.

أمه تقول باكية: "كان يمشي وفجأة طاح طاح على طول".

بدا وكأنه انتبه لفكرة ما، وهو يرمق الوجه الشاخص. يهمس بصوت لا يكاد يسمع: "مات!".

انتبه لأصوات الضجيج من الخارج، التفت ذاهلا إلى الباب المغلق، واللغط ويتعالى، يرتفع إلى ذروة ما، لم تحن بعد.

يقوم ويفتح الدفة الحديدية إلى الشارع، فيبصر ما يكمش جفنيه ويضيق حدقتيه ويفغر فمه. هنالك ثلاث جثث أمام بابهم. هنالك عويل يتردد من كل الاتجاهات. هنالك حركة مشتتة لأجساد تزوغ في المكان.

يخطو خطوتين إلى الأمام فينكشف عمق الطريق، هنالك جثث أخرى متساقطة، كثير منها عند أبواب البيوت.

يتصلب في مكانه. هنالك أشخاص يركضون في كل مكان.

يمشي ذاهلا بملابسه الداخلية.

يرى رجلا يركض في امتداد الشارع البعيد، يركض وكأنه يهرب من شيء، ثم يسقط فجأة، مثل صخرة على الأرض.

يرى عند بيت جارهم الثالث الأبناء الصغار، وقد فتحوا الباب على مصراعيه، وتحلقوا حول جثة والدتهم في الحوش، ومن الخلف يمكن رؤية جثة والدهم عند باب المدخل.

يرى والد جاسر ميتا، وهو منبطح على بطنه في منتصف الشارع. وجاسر يقف بجانبه، ممسكا برأسه، ذاهلا.

ينتبه إلى بيت لطيفة عن يمينه. يتجه إليه بخطوات أسرع. الباب مفتوح. يلج إلى الصالة. يرى الفتاة جاثية عند جثة والديها، وحينما رأته صرخت فيه: "تعال خل نشيلهم".

ولكنه يتراجع خطوات إلى الخلف. يخرج من البيت. يتطلع حوله. ملامحه مرتبكة، ولكن متحفظة، لم ترتفع بعد إلى ذروة هستيرية، ما زالت على درجة حياديته التي تترسخ أكثر مع استحواذ قبضة التوجس من شيء صادم مسيطر على الحواس. يمشي أولا، ثم يهرول في الشوارع. أناس كثر يتحركون، جثث متساقطة في أماكن متفرقة. ثم يلف من الزاوية لينكشف الشارع الرئيسي، وفي آخره المسجد، حيث هنالك ما لا يقل عن ٢٠ شخصا سقطوا فوق بعضهم عند الباب وهم يخرجون، من بينهم نافع وصالح.

يرى صقعوب واقفا أمام المسجد، يهتف إليه من بين المجموع: "رح ناد حمدان بسرعة".

ولكن سالم لا يتحرك. فيهش صقعوب بيده: "روّح".

يتحرك سالم.

يلتفت بزاوية ٣٦٠ درجة ببطء ليرى كل الضجيج الذي يحدث، وخصوصا في امتداد المخيمات عند مدخل القرية. يهرول إلى المكان. الكثير من الجثث المتناثرة، الكثير من الصراخ واللخبطة والتداخل الهستيري.

يرى أن أحدهم يتجه إليه، بوجهه المتحجر العنيف، يتجه إليه وكأنه ينوي إيذاءه، يراقبه سالم متصلبا دون حركة، ولكن الرجل يسقط فجأة دون مقدمات.

يتراجع عدة خطوات. يكاد أن يتعثر في جثة مسنة انكشف وجهها عن تكشيرة طفيفة.

يتراجع وهو يرى رجلا يمشي وهو يخلع ملابسه قطعة قطعة كمن يحاول التخلص من حريق لا يرى، ثم يسقط.

يرى يحيى، وهو يقف بين الخيام، يراقب، ويتأمل. تعلو ملامحه حالة ذهول يحاول السيطرة عليها.

يظل يتراجع. ثم يركض. يركض بقوة بين الأزقة. حتى يصل إلى بيت حمدان.

عند بابه جثة فاطمة بقميص وطرحة تغطي نصف وجهها. يتجاوزها، يدخل البيت فتتكمم الأصوات، يقتحم ظلمة الرواق إلى الصالة، ويشاهد جسد حمدان، منبطحا وسط الدرج، لم يكمل سقوطه إلى الأرض، فاردا ذراعيه، يبدو بقميصه المقلم الواسع مثل فراشة. يقترب منه، حتى يقف أمامه. لا يرى إلا عينه اليمنى، شاخصة، فوق لحيته الخفيفة الشيباء.

يحدق بنظرة جمود متحجرة، لا يستطيع إزاحة نظرته عن وجه حمدان. الأصوات من الخارج تصل مكممة، وفي رأسه دوار عنيف، ترتفع حدة سطوعه، فتكاد أن تعميه.

تمر عدة لحظات. يبدو وكأنه يستفيق ببطء. تقل حدة حياديته، ولكنها تتجه إلى الغضب عوضا عن الهستيريا. يحس بدمه يغلي. يستدير ويركض خارجا من البيت، يركض في الأزقة، ويركض خارج القرية نحو الطريق الزراعي. أصوات القرية تتساقط من خلفه قطعة قطعة، ولا يبقى إلا صوت أنفاسه وفحيحها.

يركض أكثر من ٥ دقائق، حتى يصل إلى المقبرة منقطع النفس، فيقف لحظة ليسترجعه.

يتجه إلى قبر ظافر، فيجده مدفونا بالكامل. تزداد حدة غضبه. يأخذ المسحاة ويحفر، يحفر بقوة وعنف وفحيح، يغطي صوت الضرب كل صوت من الطبيعة، يضرب وكأنه يفلق البحر أمام موسى وقومه. يحفر حتى يصل إلى أسفل القبر حيث الشق، يحاول فتح الطوب المرصوص عليه، يكسره بحد المسحاة، حتى يفتح فيه فرجة كبيرة، يتطلع فيها، ويجد جثة في كفن. يجرها من الفتحة، واللبن يمزق الكفن. يسحبها إلى خارج القبر. يشق الكفن كاملا، ويبرز منه وجه ظافر، ميتا.

يحس بانقطاع نفسه، يمسك صدره، ويظن صدقا أنها النهاية، أنه سيسقط مثل حجر على الأرض. يتراجع خلفه، يجلس متكئا على شاهد القبر. تمر عدة دقائق تنتظم فيها أنفاسه، ويعتم السطوع المزغلل في عينيه.

يقوم بعد لحظة، يقف بملابسه الداخلية، عاجزا، يغطيه تراب وعرق، يتطلع حوله زائغا وكأنه يرى كل شيء لأول مرة. أصوات العصافير تُسمع في كل مكان، الشمس حمراء وفاقعة تشرق من الشفق وسط لطخات الغيوم، ورؤوس الشجر تتحرك بخفة مع الريح، تنغز السماء.

يلتفت نحو الطريق الزراعي، يراه يلوح هناك، جميلا وحميميا، بمساره الترابي المدكوك ودفتي النخيل، شامخ وفارعة الطول، يصنع ستارة ظلية فوق التراب، وكأنه كهف من الشجر والفيء داخل رقعة الشمس والقفر.

يتحرك مستنزفا، محدودبا، بملابسه الداخلية المتسخة وشعره المنكوش. يسير ببطء في الطريق الزراعي، وطلته الحيادية تعود لتستحوذ على وجهه وسَمته، ومشيتُه التي يعرف بها تعود أيضا لتشكل هيئته. ويمشي، وهو يكاد يسمع صوت الفورد ٦٦ تقطع الطريق، ويفكر أن ما يحدث ليس واقعا أو حلما، وإنما كلاهما، يحدثان الآن.

٢

كل شيء شاخ في لطيفة إلا العينان. واسعتان وزرقاوان. في وجهها ترهلات سطحية ترمز للسنوات التي سُحبت على جلدها ونقّبت خطوطا مجوفة. تتكتل من كل جهة، رمليةً، وتتكور على العينين الزرقاوين، اللتان تشعان مثل بحيرتين وسط نفود متموجة. فتيتان جدا، وكأن الزمن الذي يلتهم فتوة الجسد ليغذي بها ديمومته قد تخلى عما سحبه من جسد لطيفة ليتركه في عينيها، ولم يعد أبدا ليأخذه.

السماء شمسٌ كلها، ولا موطئ للنظر فيها، والظهيرة تجعل كل شيء ينتعل ظله، ولكن لطيفة تتمشى محدودبة تحت ظلال أشجار مزرعتها الكبيرة، وتغطس قدمها في الساقي، وتمرر أصابعها على التين والنعناع والتمر المصروم. وتبدو في مشيتها المستمتعة امرأة فتية لعوبة مازالت متورطة بشغف العيش وحب الحياة.

حينما تجلس معها، تسمع في لحظات الصمت صفير استغفارها وتسبيحها وتهليلها، ولكن عيناها فتيتان جدا لدرجة أنك تكاد ترى في زرقتهما كل من غرقوا في حبها، وكل القصائد التي كتبت فيها، وكل الأغاني واللذات والحكايات التي تقف وراء شيء بهذه الحيوية والديمومة.

المنزل القديم الذي ربيت فيه ما زال موجودا في الديرة التي تحولت محافظة مترامية الأطراف. بيت من الحجر، في طرفه ملحق صغير، ملتصق بالسور. حينما توفي والداها، لم يبقى إلا هي وأخوها الصغير، الذي نقلت صوره القديمة إلى جوالها لتكون معها دائما. في السابعة عشرة من عمره آنذاك. ذهب إلى الدراسة في الجامعة، وصار يجيء الديرة مرتين في الشهر. يقرأ الكتب، ويخاوي المتعلمين، ويحب الحياة حب الصدامي، مثلها.

في رمضان، يجلسان على سفرة الإفطار في الحوش، يأكلان ويشبعان، ويطالعان التلفاز. وحينما يؤذن العشاء، وتبدأ المساجد بصلاة التراويح، يدخلان الملحق، ويشغلان أسطوانات حجاب بن نحيت وطلال مداح في البكم الذي أعطته مالا ليشتريه لها من الرياض.

وانوح نوح منوحاتٍ من الوَرْق / لاشفتْ بعض ثيابك معلقاتِ

هذا محلّ الضحك والمزح والقرق / وهذا محطّ المعطفة والعباتي

تستطيع لطيفة حتى هذه اللحظة أن ترى كل شيء في الملحق الذي كان غرفة أخرى لأخيها: المعلاق وراء الباب حيث تتدلى ثيابه، الفرشة الزيتية الخشنة، تخشيبات الحديد المليئة بالكتب، والتلفاز، والطاولة، والجلسة، ورائحة التتن والدخون، ووجه أخيها النحيل، والبكم الذي يغني منه حجاب.

كان سالم ينتظر خروج أخيها من البيت متجها إلى استراحة اخوياه، كل يوم، ليجيء إليها. لم تطالبه بالزواج، ولم يطلب منها أن تتزوجه. ظل سالم عازبا. ترك الشرطة، وعمل مقاولا. الأشخاص الذين جاؤوا إلى هنا سعيا وراء البعث والخلود، دفنوا عددا من أهلهم الذين ماتوا في المهلكة الكبرى التي حصدت قرابة ٣٠٠ شخص، أغلبهم فوق سن الخامسة والأربعين. ولأنه لا شيء مثل الموت يوطد علاقتك بالمكان، فقد قرروا الاستمرار هنا. جاء بعمال من الرياض، وافتتح شركته بالتعاون مع يحيى، وبدأ يعمل في المقاولات. أول ما بناه كان سور المقبرة الجديدة التي دفنت فيها كل الجثث، في نفس المكان التي كانت فيه الخيام، ولذا يمكن الآن أن ترى المقبرة التي امتلأت بعد ٤ عقود متموضعة في صدر المحافظة، مثل القلب. اتجهت بيوت النزلاء الجدد إلى ما وراءها، وتزايدت، حتى كبرت القرية ثلاثة أضعاف خلال ١٠ سنوات فقط. تولى مع يحيى مشروع تمديد خطوط الهاتف، وبنى مكتب البريد.

يتلطم بشماغه، ويمشي في شارع بيتها، متحينا الفرصة المناسبة للدخول. ولكن أي شخص يراقبه من بعيد، سيعرفه مباشرة بسبب مشيته المتئدة المعتادة التي يُعرف بها.

يجلسان في منزلها، ولكنهما لا يتحدثان كثيرا.

كان سالم يتطلع إليها كثيرا بنفس تلك النظرة المتوجسة، التي ما زالت تبحث عن إجابات متمنعة يقتنع أنها لديها، وأنها تخفيها لسبب ما، بل أنها تعرف من هو ظافر، وأنها رأته في مكان ما، في ذلك الماوراء الغامض الذي غرقوا فيه قبل أن يبعثوا. ولأنه ظل يؤمن أنها خطيئة، مهما فعلت، ومهما فعل، فإنه لم يغفر لها أبدا، ولكنه لم يستطع الفكاك منها أيضا. يجلسان بوجوم في ذلك البيت، وتطأ لطيفة أمام جموده كل رغباتها

اللعوبة في أن ترفع صوت طلال مداح، وأن ترقص معه. ولأنها كانت ترى فيه قدرا، فإنها لم تخطّئه أبدا، ولكنها – مثله – لم تستطع الفكاك منه.

لم يعمّر سالم طويلا. توفي في الأربعين من عمره، أصغر عمرا من حمدان، إثر سكتة أصيب بها بعد انتقاله بأيام إلى بيته الجديد، الذي يقع في امتداد ما وراء المقبرة الحديثة. ولكنه كتب في وصيته أنه يريد أن يدفن في المقبرة القديمة، في القبر الوحيد الذي بقي فارغا هناك، وحرص طوال حياته على أن يبقى فارغا.

لم تعلم لطيفة بموته إلا بعد أيام. وحينما توفي أخوها بعد ذلك بأشهر في حادث على طريق الرياض، لم يبقى في حياتها رجل.

كانت ما تزال فتية، في العشرينات، وبدأت تنشأ حولها الأساطير. تزوجت عدة مرات، أنجبت أربعة أبناء يعيشون في آبائهم، ولا تراهم إلا أحيانا. تعرف كل ما يحدث في المحافظة، ويفتتن بها الذين يزورون مزرعتها ليشتروا التمر، وتقص عليهم حكايات قديمة لا أحد يكاد يذكرها سواها. وتقول إن لديها ثلاث نقاط ضعف فقط: التمر، والأغاني، والرجال. تحبهم، وتحب صحبتهم، حتى وإن لم يكونوا عشاقا.

يمكنك أن تجلس مع لطيفة الآن، وأن تسمع صفير الاستغفار في لحظات الصمت، ولكنك تستطيع أن ترى فعلا في عينيها المتوقدتين اللتين أعتقهما الزمن كل من غرق في حبها وسعار الظفر بها. وتصدق الأسطورة التي تقول إنها قتلت قلوب خلق بالفعل، وإنها ربما مثلما ظل سالم مؤمنا؛ خطيئةٌ.

٣

حينما انتصف سالم في الطريق الزراعي المظلل، بملابسه الداخلية المتسخة وشعره المنكوش، انتبه لفكرة تترسخ بسرعة. استدار وركض باتجاه المقبرة. حمل جثة ظافر على ظهره، وأخذ المسحاة معه، وسار مبتعدا في امتداد الصحراء، حتى وصل إلى بقعة منزوية مرتفعة قليلا، قبيل سفح جبال الصريم. حفر قبرا هناك، ودفن الجثة، وعلّمه بشاهد.

طوال حياته، ظل مواظبا على الذهاب يوميا إلى ذلك المكان، **يوميا**، والتأكد من وجود القبر كما هو. بل أنه في نهاية كل أسبوع، يحفره من جديد، ويتأكد من وجود الجثة داخله.

فاجأه تآكلها بعد أشهر، وتفتت لحمها خلال عام. ورسّخ ذلك عجزه عن الفهم. كيف يتآكل هذا الشخص؟ كيف ينقرض؟ هل انتهى بنهاية ما قُدّر له وبه؟ ويجسّ نبض لطيفة بأن يخبرها عنه، أنه دفنه عند سفح جبال الصريم، ولكنها تحدق إليه بنظرة جامدة، وتقول إنها لا تعرف عنه شيئا، فيبادلها التحديق بنفس نظرة التوجس تلك.

حينما تذكرته لطيفة قبل مدة، وقد بدأ سرطان العظام يقيد حركتها، ذهبت إلى الموضع الذي قاله. أوقفت سائقها بعيدا عن السفح، ومشت، مشت طويلا، ولكنها لم تجد أي قبر هناك. ولم يكن واضحا هل اندرس مع الزمن، أم أن شيئا غامضا يتكرر.

لقد مات بعض الذين بعثوا، ولم يعودوا، واستلقت لطيفة في سريرها ذات ليل، وهي تفكر في الموت لأول مرة، وتستنتج وهي تغلق عينيها نحو سواد لوني ثقيل أنه مثل النوم، لابد أن تصحو منه يوما. ولأن النوم درجة من درجات اليقظة، فإن الموت حتما درجة من درجات النوم. وتنام.